محمد الجمل

أطياف مسافر في الغروب

رواية

الكتاب : أطياف مسافر فى الغروب (رواية)
الكاتب: محمد الجمل
الطبعة: **2016**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

APA

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الجمل ، محمد
أطياف مسافر فى الغروب / محمد الجمل
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
168 ص ، **18** سم .
الترقيم الدولى: **5 – 115 – 446 – 977– 978**
أ – العنوان رقم الإيداع : **10124**

أطياف مسافر في الغروب





توفيق مختار

يرتبط توفيق مختار في ذاكرتي بالاشتراكية والأبوة الخالية من الأوامر والنواهي، ثم بعد تطور العلاقة، بلعب الورق، كنت أعمل بمعسكر "فايد"، بعد انحسار العدوان الثلاثي عام56، وأقضي إجازتي الأسبوعية مع أهلي في الإسكندرية دعاني أخي هشام، الذي كان طالبا بكلية الآداب/ قسم فلسفه، وفي إحدى إجازاتي، لزيارة توفيق مختار في منزله "بمحرم بك".

استقبلني توفيق في صالون منزله بهدوء زائد وملامح خالية من أي تعبير، وهو جالس خلف مكتب كبير، وأمامه مجموعة من الشباب الجالسين، بدوا لي كتلاميذ بتجمعون حول أستاذهم، يتناقشون ويتحاورون في كل شيء بحرية وإندفاع دون أية ضوابط أو محاذير، وبدا المشهد كمنتدى ثقافي، يرفع شعار حرية التعبير، تحت رعاية توفيق الذي حرص علي تجنب صفات الأب الحازم أو المدرس الصارم أو صاحب المكان، كأنما هو الحاضر الغائب، لا يتدخل إلا لمراجعة فكرة أو تصحيح مسار أو فض نزاع، وأخذت أتأمل ملامحه بدهشة وفضول.. نحيف قصير القامة، له رأس صغيرة، يعلوه شعر أسود مفروق من الجنب الأيسر، وجه أبيض ذو ملامح متناسقه، يشي بأصول تركية.

يمكن أن تطمئن إليه كما تطمئن إلى مقعد خال علمت فيما بعد أن أمه تركية، ولا تتحدث العربية، وأبوه مغربي دارت المناقشات، وقتها حول

أحاديث الساعة، الاشتراكية والقومية العربية والوجودية. فهمت من خلال المتابعة أنه مدرس الفلسفة والاجتماع وعلم النفس في مدرسة العباسية، ومعظم الحاضرين من تلاميذه أو أصدقائهم، الذين أصبحوا فيما بعد مدرسين وصحفيين وأدباء، وأصبحت تربطني بهم علاقات صداقة وطيدة، من أمثال صابر فخري، وفتحي عبد الرازق، وموريس شاكر.

استدعاني توفيق للجلوس بجواره انفصلنا عن صخب المجلس، واستغرقنا في حديث شيق طويل، أراد من خلاله أن يتعرف على أفكاري، أسهبت في الحديث عن الإشتراكية، التي تعرفت عليهاوشغلت بها، من خلال قراءتي، وعن طريق أنور بدير، زميلي في الجيش، الذي قرأ كتابي "التفسير المادي للتاريخ"، ورأس المال" لكارل ماركس، في خندقه ونحن نخدم في العريش ورفح، قبل العدوان الثلاثي انبهر بأفكاري، أدركت أنها تتمشى مع أفكاره، زاد إعجابه بي عندما جمعنا، أثناء الحديث حبنا لعبد الناصر، باعتباره النموذج والمثل الأعلى لما نريد أن يتحقق، وهو يحققه بالنيابة عنا، من خلال نظام أبوي.

وبمرور الوقت أصبحت ضيفا دائما على مجالس توفيق، أقضي معه معظم أوقات إجازاتي، وقد تعودت الدخول معه في مناقشات، افترض من خلالها صحة آرائي، بحيث لا تقبل المراجعة بدافع من غواية الحقائق الثابتة، ثم حدثت المفاجأة التي أذهلتني. ذهبت إليه ذات مساء، فوجدته يتوسط تلاميذه حول المكتب، ويلعبون لعبة "البوكر"، وهي إحدى ألعاب "الكوتشينة"، وهم يلعبونها بقروش قليلة، وبمرور الوقت اختلط مجلس الجدل والمناقشة وصراع الأفكار، باللعب، ويحرص توفيق في نهاية كل جولة

أن يكون خاسراً، وأن يتوزع المكسب على اللاعبين بشكل شبه متساو كأنما يدير لعبة عقلية بمهارة واقتدار.

أعترف بأن شخصية توفيق قد حيرتني كثيراً، قلت له في جلسة خاصة، وأنا أعرف أنه لا يضيق بأي حوار مهما كان صريحاً، إنني أرى في لعب الورق رذيلة لا تتمشى مع أفكارنا وتوجهاتنا، قال لي بمنطق يشي بدرجة من المعقولية: "سعد زغلول كان زعيماً تاريخياً، ومع ذلك كان يلعب الورق" ولما قلت له إن ثورته انتهت بالفشل ولم يخرج الإنجليز من مصر، عاد يقول: "فشلت ثورته لأسباب كثيرة، ليس من ضمنها أنه كان يلعب الورق"، عدت أقول له بلهجة غاضبة لا تخلو من احتجاج: "ماذا يفيدنا لعب الورق؟!".. قال بحماس منقطع النظير، وبمنطق مدرس فلسفة: "لعبة البوكر تحمل في طياتها كل قوانين الوجود، وقوانين السياية والاقتصاد، وتناقضات الحياة، قلت له باستنكار واستخفاف– هل تدخل هذ اللعبه في باب الاشتراكية والقومية العربية ونظرية الكفياة والعدل؟!

عاد يقول بخبرة المتمرس في القدرة علي المجادلة بحكم تخصصه الفلسفى: "اعتبرها لعبة من الألعاب إلى يسفيد منها العقل.. اللعب مطلوب مثل الجد".

أخذت لقاءتنا تتباعد بحكم انشغالات كثيرة، وهموم كثيرة، وهموم خاصة، وتفرق شمل مجلس الأصدقاء، شغلت بحياة الجندية وما صحبها من أحداث سياسية متسارعة، الوحدة مع سوريا ثم الانفصال، حرب اليمن

وتوابعها الاقتصادية والسياسية، انتهزت فرصة الخدمة بالقاهرة، فتزوجت قبل حرب يونيو بعام، تركت زوجتي وطفلي الرضيع "أكرم"، بعد إغلاق الخليج في وجه السفن الإسرائيلية، لأخدم في العريش، عدت مع االعائدين أثناء الانسحاب الشهير غير المرتب، عدتت مرة أخرى بعد إعادة بناء القوات المسلحة، بعد النكسة، لأحتل موقعي الدفاعي غربي مدينة السويس.

كان لتلاميذ مختار شأن آخر، انتقلوا جميعا من الإسكندرية للعمل بالقاهرة.أصبح صابر فخري أديبا وصحفيا في مجلة "المصور" أصبح فتحي عبدالرازف أديبا وصحفيا في مجلة روزاليوسف.

أصبح موريس شاكر صحفيا مرموقا في مجلة صباح الخير، عمل أخي هشام صحفيا بالأهرام ثم واتته الفرصة للعمل بالكويت، حيث عمل محررا بصحيفة "السياية" كان قد قرر ألا تتعدى غربته الثلاث سنوات، يتمكن من خلالها من حيازة "شقة بالقاهرة" وسيارة وتكاليف الزواج، ثم استدرجته إغراءات مادية، عجز عن مقاومتها، فبقي في الكويت عشرين عاما، ولم يعد إلا بعد حادث "المنصة".

كان لتوفيق مختار طريقه هو الآخر، ترك التدريس وعمل مديرا لمكتب الشكاوى بمحافظة الإسكندرية، رأى في هذا العمل دورا اجتماعيا، يساند من خلاله طبقة المظلومين والمطحونين، بما يتمشى مع عقيدته الاشتراكية، وعندما التقيته وهنأته قال لي بنغمة أيدولوجية: "قررت تأجيل الانشغال بالبنية الفوقية للمجتمع "الفكر والثقافة" لأشارك في حل

مشاكل البنية التحتية "العمل الميداني" وعمل بأمانة مطلقة، حتى أنه كان يرفض حفظ الشكاوى التي تتعرض لكبار المسؤولين، الأمر الذي ترتب عليه نقله إلى إدارة "حي غرل" بالمحافظة، ليشغل وظيفة إدارية خامدة في منطقة الظل، وعندما مات جمال عبد الناصر قال لي وهو يمر بحالة اكتئاب: "مات أبي الحقيقى.. لم يعد هناك أمل"، لم أتحمس له "موت عبد الناصر ليس نهاية، وإنما هو سفر في الغروب.. ستبقى مبادئه وأفكاره".. بدا يائساً لقولى. لا يعير قولي اهتماما، فعدت أقول له: "الاشتراكية التي تبناها ضد عبادة الفرد.. مع إرادة الجموع في مواصلة النضال"، اتهمني بأنني أقول كلاما نظريا، لا يغني ولا يثمن من جوع، وإنه لا يريد أن يسمع مثل هذا الكلام عدت أقول له بغيظ واحتجاج: "أنت ابن شرعي للنظام منذ الملك مينا.. أنا لا تختلف عن دعاة دعوة الخلافة الإسلامية.. لو سمعك "كارل ماركس" لأشاح بوجه عنك". ظل توفيق مختار يبحث عن مطلق أبوي آخر، واتته فرصة للعمل بالتدريس في "ليبيا"، لم يتردد في القبول، كان معجبا "بمعمر القذافى". كانت فرصة لمتابعة نشاطه على الأرض الليبية، قرأ "الكتاب الأخضر" تضاعف إعجابه بالرجل وكتابه، أصبح مثله الأعلى، مثلما أصبح "الكتاب الأخضر" كتابا مقدسا في رأيه، يطرح نظرة عالمية فريدة في حكم الشعوب، تجمع بين الاشتراكية وديمقراطية حقيقية، أطلعني على أفكاره تلك خلال إجازاته المتكررة لمصر، قلت له في إحدى إجازاته: "أخشى أن تكون فد استبدلت رجلا برجل"، ورد علي بلا تردد: "ألم يقل عبدالناصر إن القذافي يذكرني بشبابي؟!".

عاد توفيق من ليبيا وقد أصبحت الأيام غير الأيام، سألني عما يجري هنا الآن بعد غيابه الذي دام عشرة أعوام، قلت له بلا انفعال: "إننا نعيش في زمن "كامب ديفيد".. غاب عبد الناصر عن الذاكرة.. ليس هناك وجود حقيقي لنظرية القذافي العالمية التي أودعها في كتابه الأخضر.. لم يكن ذلك الابن من ذاك الأب.. الكل مشغول بلقمة العيش، وهناك من يشغلهم صنع الملايين من الدولارات.

لم يخف توفيق استعاضة من حديثي عن "القذافي "، لم يشأ أن يعلق. كان يعرف أنني لست من مريديه، كنا نجلس في محل "إيليت" في محطة الرمل، حيث جمعتنا ذكريات الصبا والشباب. وكان معنا صابر فخري الذي كان يقوم بزيارة خاطفة لأبيه في الإسكندرية، ولم يعد يتعامل مع توفيق باعتباره الأستاذ السابق والمثل الأعلى، عاد توفيق يسأل بلهجة الذي اغترب طويلا عن مصر.

– كيف تسير الأمور في مصر الآن؟

قال صابر فخري بحس الكاتب الصحفي الذي يتبني رأيا خاصاً: هناك رجل فرد واحد يحكم مصر، بعد قصة المنصة، وما أدراك ما المنصة، ويطرح شعار "استراتجية السلام والاستقرار والتنمية في ظل القطاع الخاص، وما أدراك ما القطاع الخاص، وديمقراطية ليس لها غير اسمها، وما أدراك ما الديمقراطية.

أخذ توفيق يحصد ثمار رحلة حياة خيالية من أية مكاسب تذكر، تقاعد العمل الذي وفر له معاشا مناسبا، وفوائد معقولة من مدخراتة أثناء عمله بليبيا، لم يعد مدرسا، ولا مديرا لمكتب الشكاوي وليس له تلاميذ ولا مريدون، لم يعد هناك هدف يسعى لتحقيقه، حتى لوك ان هدفا مثاليا، لم يملك وسائل إنجازه، ساءت علاقته بزوجته فطلقهان تزوجت ابنته زيجة فاشلة، وأنجبت ابنا معاقا، حصل ابنه على الشهادة الجامعية في سن الأربعين، وفشل في الاستمرار في أي عمل بسبب مرض عصبي عضال، انقطعت صلته بمعظم أصدقائه الذين واصلوا حياتهم بدرجات متفاوتة من النجاح لم يبق له من صلات سوى أخيه وبقايا معارف، لا يفعلون شيئا أكثر من أنهم يأكلون ويشربون ويشكون من برود زوجاتهم وعقوق الأبناء وغلاء المعيشة وضعف الصحة، لم أكن قادرا على قطع علاقتي بتوفيق، كان يمثل لي الأب الحاني العطوف الذي أستطيع أن أقول له كل شيء يتعلق بحياتي الخاصة أو بعملي في الجيش، دون أي خوف أو خشية من شرهة افتضاحي أو التعري أمامه، بدوت كأنما أكلم نفسي، وأنا أتحدث معه، لم يكن يمثل ضميرا تقليديا محافظا، يرفع عصا الأوامر والنواهى، قال لي ذات مرة:

فكر في أي شيء.. افعل أي شيء.. طالما أنك مقتنع ومتصالح مع نفسك، ولا تضر بالآخرين، ولاتجرح مشاعرهم.

كان مشوار الحياة قد قارب نهايته وأنا أقول له:

– وماذا عن القضية والرسالة، والعمل العام من أجل تغيير الحياة للأفضل؟!

قال بلهجة قاطعة كأنما هي غير قابلة للجدل:

– علمنا حكاما أنهم يقومون بهذه المهمة، دون حاجة إلينا، ودون استشارة لنا.

لم يكن هناك أي دافع لمواصلة الجدل، قلت له مغيرا الموضوع:

– وما هي آخر أخبارك؟

– أبحث عن امرأة "صغيرة ساذجة" تشاركني ما تبقى لي من عمر.

استغرقت في الضحك وأنا أقول له:

– هل مازلت عندك حمية للمعاشرة؟

شرد قليلا، وقد استحضر معلومة فلسفية عندما قال من منطلق ثقافته الفلسفية:

– يقول ديكارت: "أنا أفكر إذا أنا موجود".

لم أفهم العلاقة بين هذه المقولة وبين سؤالى، وعدت أستوضح:

– وما العلاقة بين هذه المقولة وسؤالي عن الجنس؟

– أنا أيضا لي مقولتي الفلسفية: "أنا أمارس الجنس إذا أنا موجود".

كانت لتوفيق تجربة طويلة مع الجنس.. ارتبط في صباه بقصة حب ملتهبة مع بنت الجيران، دامت سنوات الدراسة الثانوية، ثم فترت هذه العلاقة بشكل مفاجئ، ولم يعد يشعر نحو حبيبته بأية عاطفة.. ثم عرض عليه أحد أقربائه الأثرياء الزواج من ابنته المطلقة، التي تملك شقة كبيرة

واسعة في المنطقة الراقية من حي "مخرم بك"، وهي كاملة التأثيث الفاخر، وقد أعفاه من تكاليف الزواج، قبل توفيق العرض بدون تردد، فلم يكن يملك تكاليف الزواج، ولم يتصور أن هذه الزوجة سوف تمثل قيدا على حريته، اكتشف بعد الزواج أنها كانت تعاني من تخلف في قواها العقلية، وقصور في النضج الاجتماعي والعاطفى، واقتصرت العلاقة على سكن مشترك، يوفر حياة معيشية مناسبة، ويجتمع فيه مجلس الأصدقاء، ولم يكن هناك ما يمنعه من أن يفعل ما يحلو له. ارتبط بعد ذلك بعلاقة خاصة بأخت صديق له، واستمرت بدون زواج رغم معرفة أخيها بالعلاقة ثم انقطعت العلاقة بعد ظهور عريس لأخت صديقه، جمعته بعد ذلك علاقة حب مع زوجة مطلقة، كان يلتقيها في شقتها بالقاهرة، ويقضي معها أوقاتا سعيدة، وقال لي عنها ذات مرة إنها تتابع الحياة العامة بوعي قافي عال، وذلك يضاعف متعتي الجنسية معها، عجبت من نفسي يومها.

أيما عجب، فقد تعاملت معه في بداية علاقتنا باعتباره صاحب موقف وقضية، وإذا بي أجده أمامي شخصا آخر ثم انقطعت هذه العلاقة بعد أن ألحت هذه الرفيقة في طلب الزواج، قلت لصديقنا المشترك فتحي عبد الرازق ذات مرة: "فليمارس الجنس كيفما يشاء، ولكن أين القضية؟! وعلق فتحي بلهجة ساخرة: "هو أيضا يلعب الورق كيفما يشاء، ولكن أين القضية.. ومع ذلك أنا مدين له بأستاذيته الأبوية أيام الصبا.

جمعته بعد ذلك علاقة خاصة مع زوجة أحد أصدقائه، وعندما انكشفت العلاقة طلقها زوجها، وتزوجها توفيق بعقد عرفى، ولم أفهم سر استمرار صداقته لزوجها الصديق.

ولم يبح لي بسر استمرار هذه الصداقة. ثم جمعته بعد ذلك علاقة خاصة مع أخت زوجته العرفيف هذه ولا أعرف كيف وفق بين الأختين في علاقة مشتركة.

ارتبط بعد ذلك بعلاقة خاصة مع رفيقة لأحد أصدقائه، كان قد تجاوز السبعين عاما، وكانت هي في الثلاثينيات، فتاة عملية متحررة، تبحث عن المال من أي مصدر أو جهة، وهو يبحث عن الجنس بأي ثمن، وطلبت منه أن يدفع ثمن نصف شقة، تمتلكها باسمها ويتقابلان فيها، وافق على العرض ودفع نصف مدخراته، استمرت العلاقة بضعة شهور ثم اختفت من حياته. لم أعد ألتقي بتوفيق كثيرا، انشغلت بنشاطي الأدبي والصحفى، ولم يعد بيننا ما يمكن أن نتشارك فيه، أو نتناقش حوله، كان قد تجاوز الخامسة والسبعين عاما، ولم تعد هناك قضايا وطنية أو قومية، اللهم إلا قضية توريث الحكم باسم الديمقراطية، قال عنها البعض إنها مسرحية هزلية، استأجر توفيق شقة صغيرة متواضعة في حي "البيطاش" بالعجمى، وأقام فيها وحيدا انحسر نشاطه الاجتماعي في مكالمات قليلة، عبر "الموبايل"، مع بعض أقاربه ومعارفه القليلين، حرص على تركيب "دش: ليوهم نفسه بأنه على صلة بالعالم، عبر القنوات الفضائية.

أصبحت أزوره من باب المساندة وجبر الخاطر، لاحظت أنه يقلب القنوات الفضائسة بسرعة عالية، ولا يتوقف عند برنامج بعينه إلا قليلا، فإذا ما توقف عند برنامج ثقافي أو علمي تأخذه سنة من النوم.

لاحظت أيضا أنه لا يبدو مكتئبا أو حزينا أو يعاني من مشكلة، كان يحرص على الحديث في مسائل سياسية واجتماعية بحماس منقكع النظير، يوهم صاحبه بأنه صاحب موقف وقضية، حلى لي ذات مرة أن أشاغبه على سبيل المؤانسة والرياضة العقلية ومن باب القلق الوجودي الذي تحدثنا فيه كثيرا من قبل، سألته بصراحة تعودنا عليها.

– هل تعتقد أن العمر قد طال بك أكثر من اللازم؟

انتفض في مجلسه، وضع ساقا نحيفة علي الساق الأخرى، لقال بثقة ويقين:

– مازلت صغيرا.. صغيرا جدا.. أنوي بلوغ المائة عام.. وربما أكثر من ذلك الحياة جميلة ورائعة..

يلزم أن تعاش بكل الشبق والنهم.

– حتى ولو كانت بلا معنى؟!

– المعاني أوهام لا تصلح لغير الزينة.. زهور تقدم في المناسبات وسرعان ما تذبل.

عاد يقول وكأنما يقدم لي نصيحة غالية:

– لا تجعل المعاني تفسد عليك حياتك.. تعامل معها في حدود وظيفتها الترفيهية:

– ألا ترى أنك ضحية مجتمع فاسد؟

– هل قرأت في التاريخ عن مجتمع خلا من الفساد.. أعتقد أنك سمعت عن قتل الأنبياء، وعن قيام

كل زعيم بتصفية شركائه في النضال.

عاد يقول بلهجة الحكيم العارف:

خذها مني نصيحة.. ما زال أمامك بعض الوقت.. الحياة بلا معنى ومع ذلك يلزم أن تعاش.. إذا خيرت أن أبدأ الحياة من جديد لاخترت ذلك بمنتهى الرضا والسعادة.

– هل تعتقد أنك ضحية نشأة وتكورن وظروف عائلية مرتبطة وقاسية؟

– لا يصح أن تقول ذلك لدارس الفلسفة.. ألقيت بكل الموروث والمسلمات على قارعة طريقي.. أصدرت حكم الإعدام على الأنا الأعلى، وخلقت ذاتي بذاتي.. عندما أموت سوف تعلو شفتي مشروع ابتسامة، تغري الأحياء بهجر الأوهام.

أدركت أخيرا أن توفيق مختار لم يكن صاحب موقف وقضية وإنما كان صاحب وجهة نظر يشكل ما تتأمل حقيقة الوجوج الإنسانى، انقطعت عنه فترة طويلة بسبب مشاغل عديدة، إلى أن فوجئت بأخيه يتصل بي ويقول: "البقية في حياتك.. توفيق مات".

ألجمتني الدهشة وأصابني الذهول، رسب في روعي أن توفيق مختار من النوع الذي لا يموت، لم تكن له صفات الأحياء الذين يجمعون بين

الحياة والموت، تصورته كائنا أبديا ميتا، أو كائنا أبديا حيا، ليس هناط فرق بين موته وحياته، لم أعرف كيف أحزن عليه.. كيف ولماذا أبكي! أبلغني أخوه أنهم اكتشفوا موته في شقته بعد سبعة أيام، كانت صلته تماما بكل من عرفهم وعرفوه، لم يترك وراءه ورقة ولا قلما ولا كتابا، لم يترك سوى بعض المأكولات في الثلاجة، وزجاجات بيرة فارغة، وفنجان لم يزل عالقا به بقايا قهوة.. وغيارات داخلية تحتاج إلى غسيل، ومبسم سجائر، وموبيل، وتليفزيون يستقبل قناة فضائية لا يشاهدها أحد. سنحت لي الفرصة أن ألتقي في شادر العزاء ببعض تلاميذ توفيق القدامي الذي أصبحوا ملء السمع والبصر، التقيت صابر فخري، وفتحي عبد الرازق، وموريس شاكر.

كنا في حاجة لحديث يسترجع ذكريات تستحتق المراجعة والتأمل في ظل جبروت الموت. انشغلنا، بعوفية بالغة، بإعادة قراءة توفيق مختار الذي اختلفت آراؤنا حوله وهو حي، ما بين لائم وعاتب، ومحب ومتعاطف، قال فتحي عبد الرازق من منطلق حيادى، قدر ما استطاع: "لم يكن قانعا في أعماقه باستغراق الوظيفة والأسرة لحيويته، ويشعر في زاوية من نفسي بأنه يجب أن يكون مسئولا عما يجري حوله، ويحزنه أنه عاجز عن القيام بأي دور، لأسباب لم يشأ أن يواجهها، ويمكن أن نعتبر اهتمامه الخاص برغبات ملحة – مثل الجنس– والبوكر – نوعا من الهروب من قصور في قدراته، وهو يمارس تعاسة خفية دون وعى، تحت غطاء ثقة بالنفس غير مبررو".

ساد الصمت بعض الوقت دق جرس المنزل دخل "صادق سلماوى" بمشيته الزاحفه وكرشه الضخم الممدود – وملابسه المتهدلة،لم يتوقف عن إطلاق تعليقاته الشعبية الساخرة، وهو يتقدم نحو مقعده في وسط الجلسة بعشم يخلو من التكلف، ويقول بلهجة تقديرية وهو يلهث: "البقية في حياتكم، وكأن ما جرى " تحصيل حاصل".. أخذ يتنقل من خاطرة إلى أخرى دون تركيز أو دلالات، تلك هي شخصيته "صادق سلماوى" مدرس العلوم الاجتماعية التقليدى الذي فقد مدخراته من الدروس الخصوصية في شركات توظيف الأموال. لم يكن محبا لتوفيق وهو شخص عادي ومتدين روتيني، ويأخذ على توفيق أنه يسرق زوجات وأخوات أصدقائه، وفجأة قال بلا مقدمات: "لا تؤاخذوني.. لي رأي خاص في توفيق مختار والأجر على الله. "هو ذلك المظلوم المتوحش، الذي لا يحب أحدا، بل يجهل تماما ماهية الحب، ولا يجيد سوي اللامبالاه تجاه غيره، وتجاه ما يفعله هو بنفسه".

ألجمنا الصمت بعض الوقت، في أخذ صادق يدخن سيجارة من سيجارة، ويرتشف كوب الشاي بعجلة، وينتظر رد فعل كلامه، إلى قال موريس شاكر بتردد: "أعتقد أن شخصية توفيق يكتنفها الغموض والحيرة.. من الصعب الفصل فيما إذا كان افتقاده للهدف هو الذي أدي به إلى التحل من أي التزام، أم أن التحلل هو الذي ضيع منه الهدف".

وجاء دور صابر فخري ليدلي بدلوه بعد أن سمع ما قيل واسترجع معانيه، فقال: "أتصور أن توفيق كان يتصف بثلاثية عجيبة.. وجد ملاذه

في الجنس والبوكر والمطلق.. لم يكن يعي التناقض الذي يعيشه.. كان يتطلع إلى المستحيل بلا منهج ولا جهد حقيقي، كأن المطلق الفكري ما هو إلا مبرر للشبق الجنسي ووهم التعامل مع الأزمات بتداول أوراق اللعب.. كان ذا مظهر براق بالثقافة وباطن أجوف متداع تفوح منه التعاسة".

لم أشأ أن أشارك في هذه المباراة الوصفية للراحل توفيق مختار، رغبت أن أراعي حرمة الموت، وصحبة انتصارات وانكسارات عديدة، ومع ذلك لم أفلت من ملاحقة "صادق سلماوي" بجرأته المقتحمة، وهو يصر على إبداء رأيي، قلت باقضاب: "لقد خص تلاميذه وأصدقاؤه الحميمون بأيسر ما عنده قدر ما استطاع.. زرع فيكم حرية التعبير ومراجعة الموروث والرغبة في إثبات الذات، فلم يفشل منكم واحد.. لم يبق منه إلا مأساة وتلاميذ ناجحون".

أراد صادق أن يمارس هوايته في التندر والممازخة، اقترب من أذني ووشوشني: "ليتك تسمح لنا بالالتفاف حول مائدة السفرة" لنلعب الورق.. ساعتان "بوكر" فقط.. قلت له وأنا أتحكم في ابتسامة مكتومة: "يبدو أنك سوف تطل علينا ذات يوم من شرفة اللا معقول".

عبد الغني سلام

كلما رأيت ابني "أكرم" يقود سيارتي في شوارع الإسكندرية، وأنا جالس بجواره، تذكرت الرقيب عبد الغني سلام، سائف سيارتي الجيب "سيارة قائد الوحدة"، في الفترة ما بين عامة 1970–1974، عندما كنت أواصل خدمتي بالجبهة على الضفة الغربية للقناة.

كان عبد الغني يتمتع ببنية قوية ومظهر جاد وانضباط تام وقلة الثرثرة، ويحتفظ بالمسافة المطلوبة بين القائد والمقود، ولايستغل وضعه كسائق لسيارة القائد، اتصفت تصرفاته بالبساطة والعفوية والصراحة التي لا تخلو أحيانا من سذاجة، والتي تكشف عن طباعه الريفية، كان ابن قرية بالدقهلية، تنحصر خبراته في حدود حياة " ريفية بسيطة ومحدودة"، قدم ذات مرة وهو عائد من إجازته فطيرة "مشلتت" وهو في غاية الخجل والحرج، وعندما ترددت في قبول هديته قال لي إنه مستعد لتقاضي ثمنها، مخافة أن أصفه بالنفاق والمداهنة.. وعندما اصطحبت ابني "أكرم" معي إلى الجبهة، ولم يكن قد تجاوز السادسة من عمره، ليقضي معي يومين، يخففان من لوعة افتقاده فى، تولى عبد الغني صحبته ورعايته له وتدريبه على قيادة السيارة "الجيب"، بناءا علي طلب "أكرم" وقد تولدت بينهما صحبة لطيفة انتقلت للخدمة بالإسكندرية بعد تحطيم خط بارليف وفك الارتباط الأول، طلب مني عبد الغني أن اصحبه معي إلى وحدتي الجديدة، لم أتردد

في قبول طلبه، كانت أول مرة يعيش عبد الغني في مدينة صاخبة، بل في عاصمة القطر الثانية. واصل تدريب أكرم على قيادة السيارات، حتى أنه حصل على رخصة قيادة فيما بعد بسهولة ومن أول امتحان تضاعفت خبرات عبد الغني، ونمت قدراته على حمل العيش في مدينة لاتنام. درب نفسه على إصلاح السيارات، أصبح ميكانيكي سيارات، يتم الرجوع إليه في الأعطال الصعبة المعقدة.. نجح في شبكة علاقات، تشي بمستقبل واعد في هذا المجال، انتهت خدمتي بالجيش، ولم تنقطع صلتي بالرقيب عبد الغنى الذي ترقى إلى رتبة الرقيب أول حرص على زيارتي من وقت لآخر، ذكرني بفضل نقلي له للخدمة بالإسكندرية، وما جناه من فوائد.. حرص على تقديم أي خدمة ممكنة لى، كان يصلح لي سيارتي الخاصة كلما أصابها عطل. فهمت منه أنه لم يعد يذهب إلى قريته إلا في القليل النادر.

انقطعت صلتي به عدة سنوات، أدركت أنه انشغل بحياته الجديدة، وربما أصبحت له أعمال، كنت أقود سيارتي ذات يوم في طريق الحرية "شارع أبوقير" حتى لاحظت "لورى" يضيق عليّ الخناق، ويضطرني في النهاية إلى التوقف، نزلت من السيارة وقررت الشاجر مع سائق اللوري المستفز. وجدت نفسي وجها لوجه أمام عبد الغني سلام. تبادلنا الأحضان والسلامات. قال إنه عرفني واضطرت لإيقاف سيارتي ليسلم عليّ، أصر على دعوتي لتناول الشاي في كازينو "حليم". أيقنت أنه أصبح ميسورا. جلسنا بالقرب من شرفة مطلة على البحر. عبد الغني يتأمل البحر الذي لم يعد غريبا عليه. تبدو عليه علامات الثقة والعز. القميص مشجر وأنيق وثمين. أصبح يفرق شعره ويطيل الذاوبتين. لم أنتظر طويلا. حان وقت

السؤال. قلت بلطف ومودة: "واضح أنك هجرت "الكاكى".. الأوفرول والبيرية والجزمة "البيادة".

قال ببساطة: منذ عام.. لم أجدد الخدمة.. وجدت ما يضاعف دخلي عدة مرات". قلت بشغف وفضول: "أشتاف لسماع القصة".

قال بثقة يبين منها إعجابه بنفسه وتنم عن تجربة ناجحة.

اشتريت اللوري الذي أوقفتك به منذ قليل من سوق "الخردة".. استغرقت ستة أشهر حتى أعيده إلى الحياة.. تذكر أنني سائق وميكانيكي وأحيانا أتاجر في قطع الغيار.. قمت بتشغيل اللوري بالليل والنهار.. حققت مدخرات لا بأس بها.. أصبحت لي علاقات ترتبط بامهنة.. أمامي مشروعات كثيرة تنتظرني.

عاد يسألني بأدب واحترام لم يكن قد تخلى عنه.

– وما أخبار سيادتك؟

– نشاط أدبي وصحفي بعد التقاعد.

عاد يقول بتحرج:

– لا أعتقد أن مثل هذا العمل يأتي بهمه.

– قلت على سبيل المداعبة والتفكه هل عندك عمل يضاعف دخلي؟

قال بلا تردد:

صدقني يا فندم.. توكيل سيارات يجعلنا نعيش فوق السحب. نحن في زمن الانفتاح.. المهم أن

تتعرف سيادتك على من يمنحنا التوكيل ويوفر معرض السيارات.

قلت له بظرف:

– أشتاق إلى فطيرة "مشلتت" من قريتك بالدقهلية.

قال وهو يضحك بإيقاع ريفي:

كان زمان يا فندم.. اسمح لي أن أقدم لك "تورتة" من محل لاب.. لاب..

عاد يقول بحرج:

لا أعرف كيف أنطق اسمه.

"لابوار". آه.. آه "لابوار".. أحتاج بعض الوقت حتى أنطق اسمه.

أدركت أن عبد الغني الذي كنت أعرفه، لم يكن عبد الغني الذي أمامى. قط مشوارا لا بأس به للتكيف ممع حياة المدينة، لم يكن ذلك القروي النازح الذي يتاجر في الفاكهة أو الخضروات أو الملابس الصينية، لا أذكر كم مر من الوقت عندما كنت مجتمعا مع بعض أصدقائي من الكتاب في كافيريا "قصر الشوق" المطلة على البحر، ودخل عبد الغني سلام بقامته الفارعة وثقته المتزايدة في نفسه، ويرتدي بنطلون "جينز" وحذاء "كوتشي"، ومنعه بعض أصدقائه، قولت إنهم زملاء مهنة، حياني وحيا أصدقائى، وأقسم أن يدفع حساب مائدتي وعندما هممت بالانصراف طلب من أن نتمشى قليلا علي الكورنيش استجبت لطلبه لأشبع فضولي في معرفة أخباره، عرضت أمه عليه الزواج من ابننة خاله، ورفض العرض بحجج أن تغيرت حياته وعاداته وطرقة تفكيره، وتزوج من فتاة "سكندرية" صارخة "الأنوثة" والجمال وتعرق كيف تسيل لعابه، ثم تبين له أنها استنزفت

الكثير من مدخراته في المأكل والمشرب والكثير من الملابس والفسح والسهرات، ثم اكتشف بعد ذلك أنها فتاة لغوب، وشك في تصرفاتها أثنا غيابه الطويل في عمله خلال النهار والليل، وعندما اكتشف انحرافها طلقها طلاقا بائنا إلى غير رجعة. أظن أنه قد مر عام تقريبا، عندما زارني عبد الغني في منزلي، وفرح كثيرا لرؤية ابني أكرم الذي كان يعرف أنه خريج كلية "الهندسة" قسم ميكانيكا.. دار بينهما حديث طويل، عرض عليه عبد الغني في نهايته إنشاء ورشة لإصلاح سيارات بمواصفات حديثة، ويمكنه الاستفادة "بخبراته وصلاته، صارحني عبدالغني بأنه قد تخلص من توابع أزمة زواجه الفاشل، وأنه قرر أن يتزوج من ابنة عمه القروية، وقد طمأن أباها بأنه مل ينجب من زوجته السابقة، لأنها كانت ترفض الإنجاب، لتتنقل من زوج لآخر دون نعوقات أوعقبات، وعندما سألته: ألم تتحر عنها قبل زواجك منها؟ قال بصراحة تخلو من تحفظ: "وقعت فريسة كبت جنسي طويل، ولم تكن لي خبرة كافية بالنساء.. كانت جريئة، وقد فعلت معي ما لم يخطر على بالي.. كانت تناديني وهي تضحك ضحكة فاجرة تعال يا مراهق، عرفت سبب زيارته عندما دعاني لحضور حفل زفافه على ابنة عمه، لم أتردد لحظة في قبول الدعوة تعرفت في الحقل الذي أقيم في بيت أسرته في القرية، على زوجته الريفية البسيطة، عرفني بها باعتباري قائده في حرت أكتوبر، وأننا اشتركنا سويا في تحرير سيناء من الغاصب المحتل، علمت فيما بعد أنه باع اللوري الذي كان سبب عزه، واشترى "ميكروباص" جديد على الزيرو، وأنه يعمل ليل نهار لتسديد القسط الشهري، ثم خانت له فرصة لمشاركة زميل له في حيازة ورشة إصلاح

سيارات، وعندما لقيته ذات مرة في موقف سيارات الميكروباص بسيدي بشر قال لي أثناء الحديث بتفاؤل جامح: "لم يعد الميكروباص يناسبني.. أحلم بسيارة "ليموزنين" أنقل بها السياح ما بين القاهرة والإسكندرية والأقصر".

ومع بداية التسعينات كان التوتر الديني بين عنصري الأمة قد زاد واستفحل أمره، إلى حد تسميته بالفتنة الطائفية من بعض الجهات، كنت أتابع هذا التوتر، وما ترتب عليه من تحرشات وتشابكات، باهتمام بالغ، عندما زارتني زوجة عبدالغني سلام بشكل مفاجئ وعلى غير توقع سألتي ما إذا كنا أعرف شيئا عن زوجها، قلت لها إنني لم أره منذ فترة طويلة، قالت إنه لم يعد إلى البيت منذ أسبوع.. منذ حدثت الاشتباكات الدامية بين المسلمين والمسيحيين أمام الكنيسة المرقصية بحي محرم بك، لم أعرف أن عبدالغني له أي صلة بمثل هذه التشابكات، ذهبت إلى أكثر من قسم شركة لأعرف أي شيء عن مصير عبدالغني ولم أفز بطائل، اضطررت للذهاب إلى مديررية الأمن فأمهلني المسئول عدة أيام، قال لي المسئول بعد ذلك إنه تم القبض على كل المتواجدين في منطقة الشجار أما الكنيسة المرقصية، وربما يكون عبدالغني واحدا منهم، وليس بالضرورة أن يكون مشاركا أو متهما، لم أتوقف لحظة عن متابعة أخبار عبدالغني، حتى علمت أنه تم القبض عليه في هذا الحادث وهو رهن الاعتقال والتحقيق وطلبت زيارته في السجن، فقيل لي إن الزيارات ممنوعة، ثم إنه غير معروف في أي سجن من مسجون، أخذت أتابع مما ينشر حول هذا الموضوع فلم أفز بما يشير إلى أسماء المعتقلين والتهم الموجهة إليهم. توجهت إلى مسئول صديق

أسأله عن جرمه فقالي لي بصراحة: "تذكر أن مثل هذه الاعتقالات تتم بموجب قانون الطوارئ، وإنه بموجب هذا القانون لا يتم الإعلان عن التهم ونتائج التحقيقات"، ظلت سنوات طويلة لا أعرف شيئا عن مصير عبد الغني سلام، إلى أن زارني ذات يوم شريك عبدالغني في ورشة السيارات، لأبحث له عن مشتر للورشة يدفع ثمنا مناسبا، سألته عما إذا كان يعرف شيئا عن أخبار عبدالغنى، قال: "كل ما أعرفه أنه توقف بسيارته عند الكنيسة المرقصية" بسبب تعذر المرور، وتم القبض عليه ولم أره منذ هذا اليوم" وعندما سألته: "كيف عرفت ذلك؟ "قال: "من زميل لنا كان بصحبة عبدالغني ونجح في الهروب بأعجوبة" قلت بذهول: نهاية عبثية، سألني ماذا أقصد، قلت بسخرية واستخفاف: "كلام كتاب ومثقفين".

صبري واكد

تعرفت على الرائد "صبرة واكد"، قبل حرب أكتوبر بعام تقريبا، عندما قدم لي نفسه، ليستلم مهام رئيس عمليات الوحدة التي أقودها، والتي تتولى مهمة الدفاع عن قيادة الجيش الثالث في منطقة "عويبد" غرب مدينة السويس، وجمعتني به في البداية علاقة عمل، كشفت عن مدى كفاءته ودرايته بقواعد الحرب وفنون القتال وصفات قيادية متميزة، وما لبثت أن تطورت علاقتي به إلى صداقة حميمة، لم تنقطع، رغم فارق السن والرتبة، كان يتمتع بكفاءة مهنية عالية، وذكاء اجتماعي ملحوظ، ويتابع ويلم بكل ما يجره حوله في المجتمعين العسكرة المدني على السواء، كان يعبر عن آرائه بتلميحات خاطفة، تنم عن وعي وإدراك، ولا توقعه في المحظور، ولا تصل به إلى حد الغضب أو الاحتجاج الذي لم يكن واردا في حياتنا.

كنا نقضي أوقات الراحة في لعب "الشطرنج" أو "الدومينو" ونتبادل الحديث عن تجاربنا المشترطة، فيحدثني عما مر به أثناء الانسحاب من سيناء بعد العدوان الثلاثى، وعن ظروف خدمته بسوريا أثناء الوحدة، وعما جرى له أثناء الانسحاب الثاني من سيناء بعد حرب 67، وعن حرب القبائل التي خاضها الجيش المصري في اليمن، وسألني ذات ليلة، ونحن في ملجأ إقامتي تحت الأرض، المحكم الإغلاق: "هل نحن على صواب

أم أن مصر تتحمل ما هو فوق طاقتها؟" لم يكن الوقت مناسبا للبحث عن إجابة لهذا السؤال، ومواسير مدافع العدو تتربص بنا وتطل علينا من مزاغل دشم خط بارليف، ثم إن هذا البحث لا يدخل في اختصاصنا، قلت لصبرى باقتضاب لا يغيل عنه مغزاه: "دعنا نبحث عن الإجابة بعد تحرير سيناء، وربما بعد أن نعتزل الخدمة ونصبح أحرارا".

قال صبري بذكائه اللماح وانضباطه الواعى:

– مع سيادتك الحق.. لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

عدت أقول له بانفعال حار، وأنا أنقل "الطابية" فوق رقعة "الشطرنج" إلى مربع حساس: جيلنا كان على موعد مع القدر.. تحملنا الكثير من الجروح والمرارات لا تخلو من انتصارات مبهرة.

عاد صبري يتقول بلهجة تمزج بين البوح والولاء:

– إنها ليست ساعة للحزن، بقدر ما هي ساعة للعمل.

أصبحت علاقتي بصبري علاقة عمل وصداقة وصحبة ميدان قتال، ثم صحبة مدينة فيما بعد، كثيرا ما كان يستدرجنا الحديث إلى دنيا الشئون العائلية، علمت منه أن ابنته الكبرى مصابة بشلل في ساقها اليمن منذ طفولتها، وأنها في حاجة لعلاج بالخارج، وهو لا يملك تكاليف هذا العلاج، وزوجته تعاني من تحمل مسئولية تربية بنتين وولد وحدها، وهو غائب عن أسرته. منذ شهر العسل، يتنقل بين شتى ميادين القتال قال لي ذات مرة: "زوجاتنا تقمن بمهمة تربية أبنائنا، ونحن ضيوف عليهن خمسة أيام من كل شهر".

كان يتحدث عن وجيعة مشتركة، قلت له على سبيل تبادل الهموم والمتاعب:

ابـني أكـرم اشـترى لعبـة سماهـا "لعبـة الحـرب".. جيشـان متقـابلان يضمان مدافع ودبابابت وطائرات وعساكر، يدير المعركة بينهما بأصابعه، ويحاكي بصوته أصوات الطائرات والمدافع والدبابات. ولا يتوقف عن إدارة المعركة إلا بعد أن يناله التعب والإنهاك، فيخلد إلى النوم طويلا.. وعندما يستيقيظ يسأل عني فلا يجدني، فتمتد أصابعه إلى اللعبة، ويعيد إشعال نار القتال. تأثر صبري بالحكاية قال باشفاق:

لعبة شطرنج حديثة.. لعبة قتال خالية من مهارات العقل.
ربما تكون أيضا لعبة تفريج عن المكبوت.

صـارحني صـبري ذات ليلـة بأنـه سـعيد بالعمـل معـي، ولم يتوقـع أن نصبح أصـدقاء بـلا تحفظات، حكي لي أن توقع أنـه يشـي بـه قائـد وحدتـه السـابقة الـتي انتقـل منهـا ليعمـل معـي في وحـدتي. حـدثني فعـلا قائـد وحدتـه السابقة وشكى لي من تبرمه المستمر، وضيقه من حالة اللاسلم واللاحرب. وانتقاده لأوضاع كثيرة، تعاملت مع صبري دون تأثر برأي مسبق، أدهشتني كفاءتـه وانضـباطه وحسـن قيادتـه لمرؤسـيه، كنـت أدرك أن مـا يشـكو منـه وينتقـده، هـو نفـس مـا يشـكو منـه كثـيرون، والفـرق هـو أنـه يفصـح عـن شكواه، بينما لا يفصح الآخرون. وهكذا سمحت له بدرجة من حرية تعبير منضبطه، داخل مقر إقامة تحت الأرض وموصد الأبواب. تعجب قائده من إمكانياته المتتميزة. لم أنس ما قاله في صبري ذات ليلة شديدة الإظلام: "لا

مفر من أن تتغير حياتنا بشكل ما، بعد تحرير سيناء"، أردت أن أهدئ خاطره فقلت: "التغير هو طبيعة الحياة وإحدى صفات الشعوب الحية".

وجاء ذلك اليوم الحاسم الذي جمعني بصبري واكد، في مركز القيادة الأمامى، فوق قمة جبل عتاقة، عندما صدرت لي التعليمات بالانتقال إليه، صباح السادس من أكتوبر 1973، قلت لصبري بلهجة متفائلة: "أنت تحلم بالتغيير.. هناك شيء يتغير في حياتنا الآن"، قال صبري بعشم في ديمقراطيتي وبجموح متهور: "العبور بداية تغير.. نحن ننتظر الغير الأكبر"، قلت له بمزيد من الإعجاب والاشفاق وأنا أستغرق في الضحك: "ربما أزورك يوما ما في سجن طره". دقت ساعة الحرب، حققت الضربة الجوية أهدافها، حلت الساعة الثانية وخمس دقائق. عبر الجيش المصري قناة السويس، تم تحطيم خط بارليف، واصلت القوات المصرية زحفها شرق القناة تساقطت طائرات العدو بلا انقطاع، نجحت القوات العابرة في صد الهجمات المضادة توالت المعارك بنجاح كبير، بدا أن الحلم قد تحقق على أرض الواقع، قلت لصبري إننا في طريقنا إلى "المضايق" عند العريش، قال إنه لا يقبل بأقل من الوصول إلى الحدود الدولية. مرت أيام مجيدة قبل حدوث الثغرة عند "الدفرسوار" عبرت وحدات إسرائيلية ناحية الغرب، اتجهت نحو السويس. فشلت فشلا ذريعا في الاستيلاء علي المدينة، لم تستطع الصدمة أن تبدد أفراح النجاح، مرت الأيام بطيئة متثاقلة، حتى حل يوم 22 أكتوبر 73.كانت الثانية عشرة ظهرا، عندما دق جرس التليفون الميداني سمعت صوت قائدي عبر السلم الممدود فوق الرمال والصخور والأخاديد والخنادق، يقول بلهجة "مقتضبة": تم وقف إطلاق

النار رمقني صبري ينظرة قلقة مستطلعة، أخبرته بنص البلاغ، نظر طويلا ناحية مدينة السويس المحاصرة بدبابات العو، قال بصراحته المعهودة التي لا تخلو من جزع: "هل كانت حرب تحرير أم حرب تحريك لوضع تجمد قرابة ستة أعوام؟!

لم أكن قد تخليت بعد عن شريط الحبوب المهدئة "فالينيل" الراقد في جيب "الأوفرول" خلعت حذائي لأول مرة منذ بدء الحرب شممت رائحة العفن المتصاعدة من قدمي المتورمتين، سجلت البالغ في دفتر "يوميات الحرب" بيد مرتعشة وإحساس ضبابي غامض، قلت لصبري في لحظة استشراف لمستقبل غامض: "يبدو أننا نعيش في لحظة فارقة بين زمان مضى وزمن قادم"، رمقني صبري بنظرة حائرة، تكشف عن شكوك طالما راودته، ولم يبح بها لأحد اعترف بأنني وقعت فريسة حسابات متضاربة للموقف، لا تؤدي إلى استجلاء واضح لحقيقة ما جرى وكان قد كسرت رهبة الصمت، وأنا أهرش قدمي ثم رأسي وقلت لصبري بإحباط: حان الآن موعد الهبوط من قمة "عتاقة"، قال بلهجة تعكس ما ترسب في قلبه: "ربما نضطر لصعود هذا الجبل مرة أخرى ذات يوم سيقرر مصير عفود كثيرة قادمة"، لم أشأ أن أعلق على قوله الآن، عاد يرهقني بنظراته الفضولية النهمة، التي تطلب مني أن أقول شيئا.. شيئا ما.. نحن نجمع حاجاتنا استعدادا للهبوط، قلت له بلغة محايدة، قدر ما استطعت: "ربما هو يوم يفصل بين تحديات، كانت لها أرباحها وضرائبها، وبين نداء سلام، تتخلله بالضرورة تحديات من نوع آخر، وامتحان صعب للإرادات"، هبطنا منحدر الجبل بحرص وحذر.

صلابة الصخور لم تسمح لنا بصنع سلم للصعود والهبوط، انتقلنا من مركز القيادة الأمامة عند القمة إلى مركز القيادة الخلفي عند القاعدة. تم فك الارتباط الأول على خط النار، ثم تبعه فك الارتباط الثانى، ثم استقرت الأوضاع على خط التماس بين الحيشين، وسمعنا من قال إن هذه الحرب سوف تكون آخر الحروب، وتوسطت لصبري لدى قائد الجيش، ليرسل ابنته المصابة بالشلل، للعلاج بالخارج، على نفقة القوات المسلحة، واستجاب لطلبي، طلبت منه أن أعمل بالإسكندرية، حتى أكون قريبا من أسرتي، بعد غياب دام سبع سنوات، طالما أن هذه الحرب هي آخر الحروب، واستجاب لطلبي مشكورا، انقطعت صلتي بصبري عدة سنوات، إلى أن زارني بمنزلي بالإسكندرية، بعد فض مظاهرات الطعام يوم19 يناير 1977، علمت منه أنه شارك بوحدته في فض مظاهرات الطعام في القاهرة بطريقة سلمية هادئة، علمت منع أيضا أن ابنته عادت من الخارج، بعد أن شفيب من مرضها بدرجة معقولة، لم يمض وقت طويل حتى علمت أنه قد أحيل إلى التقاعد، وأنه سعيد بذلك، لأنه ينوي أن يقاتل في جبهة جديدة في ساحة العمل الوطني.

كنت قد أحلت إلى التقاعد قبله بسنوات، والتحقت بكلية الآداب لأحظى بالتأهيل المطلوب لمهنة "القلم والكتابة"، وأصبحت عضوا باتحاد الكتاب، بعد أن أصدرت رواية عن حرب يونيو 67، وحازت القبول والانتشار، أصبحت عضوا دائما في الندوة الصيفية لتوفيق الحكيم

ونجيب محفوظ بالإسكندرية، وبدأت أكتب بعض المقالات في الصحف والمجالات.

كان صبري واكد قد اتخذ منحنى آخر، بعد أن تحولت المنابر الوطنية إلى أحزاب سياسية، أبلغني في إحدى زيارته أنه انضم إلى حزب "التجمع الوطني الوحدوي الاشتراكي"، الذي يمثل يسار الوسط، أخذت أتابع نشاطه، ولا حظت أنه أصبح عضوا بارزا في الحزب، ومعارضا شرسا للتطبيع والتيار الديني الصاعد، وسرعان ما تصاعدت معارضة حزبه بلا تحفظات، بعد رحلة "السادات" للقدس، وتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد".. واصل صبري نشاطه الحزبي المقاوم للتطبيع بلا توقف أو هوادة، إلى أن قبض عليه في حملة اعتقالات سبتمبر 81، وأدع السجن مع غيره من رموز المعارضة، لم يسمح لي بزيارته في السجن، لم أره إلا بعد حادث "المنصة" في أكتوبر 81، بعد أن تم الإفراج عن المعتقلين، لم تكن قد خمدت فيه بعد أنفاس المقاومة والاحتجاج، بدا مشغولا بالغد، أكثر من انشغاله بما وقع. سألته بنبرة استقراء لأفكاره: "وماذا بعد؟" قال بهدوء حائر: "لا مفر من مرور فترة ترقب وانتظار".

مرت سنوات ثقيلة متباطة، لا يحدث فيها شيء ذو بال، ولا تتوقف الصحف الرسمية عن التذكير بشعار الوضع القائم: "استراتيجية السلام والاستقرار".

علمت أن صبري يعاني من مرض عضال في قلبه، يحتاج لعلاج بالخارج. ولا يملك بالطبع تكاليق العلاج، ولم يكن هناك من أتوسط عنده لعلاجه بالخارج، سألته وهو راقد في سريره، يلتقط أنفاسه بصعوبة.

– ما أخبار حزب التجمع؟

استغرق في ضحكة هسبيرية تكاد يتوقف لها قلبه.

– أصبح حزبا ورقيا، يصدر صحيفة، تقرأها قلة تبقت من زمن تولى.

زكي الدفراوي

بدأت علاقتي بالدكتور زكي الدفراوي عندما انتسبت لكلية الآداب قسم اللغة العربية، بعد إحالتي للتقاعد عام 1977، وكان سني 42 عاما، كان أحد أحلامي، منذ حصولي على الثانوية العامة، أن أحتل مقعدا في مدرج بالجامعة، خطوت خطواتي الأولى نحو المدرج مع بداية المحاضرة الأولى من اليوم الأول للعام الدراسي الأول.

كان المحاضر هو الدكتور زكي الدفراوي، رجل فارع الطول، رشيق القوام، يميل لونه لسمرة محبب، له رأس كبير، يعلوه شعر قصير ينحسر عن جبهة عريضة، وملامح وجهه متناسقة النسب والأبعاد، تضفي عليه الكثير من المهابة والرهبة، وإعجاب غامض، كأنك أمام لوحة مبهرة تدعوك إلى التأمل والغوص في الأعماق، فهمت أنه أستاذ مادة "الشعر الجاهلي" عندما بدأ يحدثنا عن "معلقة" لبيد بن أبي ربيعة، تواصل حديثه ساعتين، دون أن يسمع همس أو حفيف، كاننا مخدرون أو غائبون في عالم آخر، ومسلوبو الإرادة بالتأكيد، لم نكن نشعر بأي غربة عن عصر بدوي قديم هو "العصر الجاهلى" قبل الإسلام، كان يغوص في أعماق النفس الإنسانية التي تعكس كل العصور.

أصبحت أتلهف شوقا إلى محاضراته، رأيت فيه مثلي الأعلى الثقافي، تمنيت أن تجمعني به صحبة أبدية، أقول له فيها كل ما يعتمل في نفسي، ويكشف لي عن مكنون "الكاريزما" الجبارة التي يتمتع بها.

لم يكن ذلك سهلا، لم تكن هناك آنذاك الوقت مبررات صحبة وصداقة مع فارق السن. علمت أنه كان رئيس فسم اللغة العربية ثم أصبح عميدا لكلية الآداب، ثم أصبح نائبا لرئيس الجامعة.

أستاذ متفرغ لمادة "الشعر الجاهلي" والنقد الأدبي الحديث، وأحد كبار المعجبين بطه حسين.

التقيت به مرة أخرى في العام الدراسي الرابع والأخير بالكبية، عندما كان يدرس لنا "النقد الأدبي الحديث"، ولاسيما الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية الحديثة، كما رصدها الناقد الإنجليزي المعروف "كوليردج". كنت قد تعرفت في فترة التبلمذة هذه المتأخر بكثير من أساتذتي، الذين هم تلاميذ د.زكي الدفراوي، وكان أقربهم لي د.سعيد وافى، الذي لم تنقطع علاقتي به على مر السنين، وكتب الكثير من الدراسات عن أعمالي الأدبية.. وجاء الوقت المناسب لأسأله عن سر الشخصية المبهرة لـ د.زكي الدفراوى، وقدرته على كسب عقول وقلوب كل من حوله، الذين يكنون له كل الهيبة والاحترام والحب. سألني الدكتور سعيد وافي عن رأيي قبل أن يجيبني فقلت:

– يصلح أن يكون زعيما سياسيا أو رئيس حزب أو وزير ثقافة أو رئيسا لهيئة "اليونسكو".

ابتسم د.سعيد، وقال بانفعال زائد:

– لم تضع يدك على مفتاح شخصيته.. الأستاذ خلق ليكون أستاذ جامعة.. التدريس بالنسبة له عملية تعد في محراب.. لو خير بين كل مناصب الدنيا وأستاذيته فسيختار الأستاذية.. الجامعة بالنسبة له هي دير الراهب، وهو الراهب الذي يدعو تلاميذه المريدين إلى التسامح والمحبة والإخاء والصفح عن المسيئين وذوي الطباع السيئة.. هو رومانسي حصل على الدكتوراه عندما أثبت أن النزعة الرومانسية موحدة حتى في الشعر الجاهلي.

ومع شدة إعجابي بـ د.الدفراوي كنت أشعر بأن هناك شيئا ما لا يجعلني أتوحد مع شخصيته، ربما شعرت أنه مجامل أكثر من اللازم، ولا يتصادم مع أحد حتى لو اختلف معه، ورأيت أن المحبة وحدها لا تصنع مستقبلا في زمن يحتاج إلى موقف واضح، من النزاعات والصراعات القائمة. كنت قد حصلت على ليسانس الآداب، عندما جمعتني به ندوة في قصر ثقافة الحرية بالإسكندرية، وكان يناقش مسرحية "مأساة الحلاج" لصلاح عبدالصبور، وعندما فتح باب المناقشة قلت إن "الحلاج" لم يصلب على شجرة بتعمة الزندقة، وإنما لأنه دافع عن الفقراء وحقهم في العيش الكريم، بما ينم عن مطالبته للسلطة بتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا ما قصده صلاح عبدالصبور.

لم يتحمس د.الدفراوي لرايي، بل تجاهله تماما، ولم يعلق عليه، وعندما انتهت الدورة انفرد بي شاعر صديق، وقال لي بتشجيع،: "أنا معك في الرأي الذي قلته عن الحلاج"، وتحمست للتعبير عن وجهة نظري فقلت

إن وظيفة الأدب في رأيي تعبير عن الهموم الاجتماعية وتغيير الوقع للأفضل، وتمنيت أن يشاركني الأستاذ في رأيي، سألته ما هي وظيفة الأدب في نظر الأستاذ، ارتاح لسؤالي كأنما توقعه، وقال بلهجة الشاعر المتمكن من حرفيته لأديب مبتدئ: "الدكتور الدفراوي ينتمي للمدرسة الرومانسية التي ترصد العواطف والمشاعر التي يكشف عنها الشاعر في شعره، والتي قد تتعرض لهموم الواقع، ولكنه ليس من أنصار الأدب الملتزم بقضية، عدت أسأله باستغراب: "وماهي إذا قضية الأستاذ؟" قال بلهجة الواعي العارف: "الأستاذ صاحب رسالة جامعية، ويحظى بقلوب تلاميذه ويتمني ان يصبح رئيس جامعة الإسكندرية مثلما أصبح "طه حسين"، قلت بحماس متشدد: "كان طه حسين صاحب موقف في زمانه.. طور التعليم الجامعي.. حقوق مجانية التعليم.. كان صاحب منهج جديد في البحث والتفكير" قال لي وكان معه حق في قوله: "أنت شديد الإعجاب بالدكتور الدفراوي، وترى فيه مثلك الأعلى، ولكنك تريد أن تشكل مثلك الأعلى وفق هواك، وهذ يحتاج منك لمراجعة".

تواصل إعجابي بالدكتور زكي الدفراوي كأستاذ جامعي لايشق له غبار، وكإنسان يفيض بإنسانية على كل من حوله، ويغمر تلاميذه بأبوة منقطعة النظير، علمت أنه تزوج من زوجة أخيه، بعد وفاته ليرعاها ويرعى ولديها، وكان نعم الزوج والأب، ولم أسمع أن كانت له علاقات غرامية، رغم وسامته ورشاقته واحتفاظه بحيوية الشباب ودماثة الخلق وحلو الكلام وحميمية الطباع أعترف أن هذه المسألة قد حيرتني كثيرا.

حرصت على إهدائه نسخة من كل مجموعة من مجموعاتي القصصية الثلاث التي أصدرتها تباعا، ولم أحظ بانطباع أو تعليق أو رؤية نقدية، وعندما أبديت هذه الملاحظة للدكتور سعيد وافي، تلميذه ومدرسي بالكلية، قال لي بصراحة: "تذكر أن الأستاذ عاشق للشعر والشعراء، ولا يهتم كثيرا بالقصة والرواية"، قلت له إن طه حسين، المهتم بالشعر والشعراء أيضا، نقد القصة والرواية، بل كتب الرواية قال لي بظرف: "لقد أعطاني الدكتور الدفراوي توكيلا رسميا عاما بنقد القصة والرواية بالنيابة عنه"، لاحظت أيضا أن الدكتور الدفراوي كان يشرف على رسائل "الماجستير" والدكتوراه، المتخصصه في الدراسات الشعرية، وكان رقيقا في نقده للمتقدمين بهذه الرسائل، بدرجة تشي بروح التعاطف والمجاملة، بعيدا عن التوجيه الصارم والتقويم الحافز للهمم، ولم ألاحظ أن أحدا من الذين أشرف على رسائلهم قد سطع نجمه وبزغ بفرده العلمى، ومع ذلك كان الدكتور الدفراوي هو نجم المناسبات الأدبية والاحتفاليات الثقافية في كل منتديات الإسكندرية، بما يملكه من هيبة الحضور ولغة عربية "جذلة" ومظهر أخاذ، تلك الصفات المطلوبة لتكريس الحضور الإعلامى، الذي أصبح ضرورة من ضرورات العصر.

ثم حدثت مفاجأة لم تخطر لي على بال رأيت الدكتور زكي الدفراوي أمامي يملأ شاشة التليفزيون، بكل ما يملك من حضور شخصي وإعلامى، وهو يناقش رسالة الدكتوراه للسيدة جيهان السادات، حرم السيد الرئيس أخذت أتابع بشغف واهتمام لا يخلوان من حيرة وتساؤلات، كيف ولماذا تم ترشيح الأستاذ لعضوية لجنة المناقشة"! المناقشة تدخل في صلب نشاطه

الجامعي، لكن الطابع الإعلامي سوف يتغلب بالتأكيد على الطابع العلمي، المسألة التي تستحق التوقف عندها في هذا الوقيت، هي أن شعبية الرئيس السادات، في نهاية السبعينيات، قد تراجعت كثيرا بسبب الغلاء والانفتاح العشوائي وتراجع القطاع العام والفساد، كيف قبل الأستاذ هذه المهمة في هذا التوقيت؟! سألت الدكتور سعيد وافي.. هل هو العائد المادي، أم اللمعان الإعلامي، أم الوقوع تحت ضغط لا قبل له به؟ لم يشأ الدكتور سعيد أن ينتقد أستاذه أو يدينه، قال لي باقتضاب يوحي بأنه غير مستعد للمجادلة: "لا أحد تواتيه مثل هذه الفرصة فيرفضها أو يعتذر عنها.. دعنا نتكلم في موضوع آخر"، سألته بغضب بدا له صبيانيا يكشف عن مراهقة فكرية: "أين الموقف؟! أين الرؤية؟! لا يجوز تحدي الشعور العام بهذه الجراة، استغرق في الضحك وقال لي بنصف الفنان الكامن في أعماقه: "لم يشتهر معظم شعراء العربية إلا بعد مدح الخلفاء وولاة الأمور.. أنصحك بقراءة كتاب العبث واللا معقول في زماننا هذا حتى تكتمل رؤيتك للحياة الإنسانية عبر كل العصور".

ثم حدثت مفاجاة أخرى بعد ذلك بعام تقريبا، قدمت أعمالي القصصية لصاحب برنامج "ندوة ثقافية" بالتليفزيون أبدى إعجابه فطلبت مناقشتها في برنامجه، وعرضت عليه اسم أستاذ وناقد جاد ومتخصص في مجال القصة والرواية، لم يبد موافقته على المناقسة، وطلب من بلهجة قاطعة أن أسعى لمرافقة الدكتور زكي الدفراوي، لمناقشة أعمالي في البرنامج.

صارحته بأنه غير متخصص في القصة والرواية أنهى المقابلة، وهو يقول بحسم جازم: هذا رأيي.

قبلت العرض، لم أكن انتهازيا في قبول العرض، ولكني أردت أن أفهم ما يجري في الساحة الثقافية بطريقة تجريبية عملية. استغرقت الأمسية حديثا تفصيليا طويلا عن مسيرة الدكتور زكي الدفراوي من أجل إحياء اللغة العربية وتطوير الشعر العربي وإعلاء شأن الشعر العربي وإعلاء شان الحياة الثقافية، باعتبار الأستاذ رمزا من رموز عصر الإحياء والتنوير، اكتشفت في هذه الأمسية أن الدكتور الدفراوي يقرض الشعر، ولم أكن قد قرات له قصيدة واحدة، لم يبق في الأمسية سوى بضع دقائق قليلة، تلك التي تحده فيها الأستاذ عن أعمالي القصصية في عجالة انطباعية سريعة. الشيء المذهل الذي لم أكن سعيدا به، هو أن شهرتي قد عمت الأوساط الأدبية والثقافية والإعلامية، رغم أنني كنت في بداية الطريق، ولم تكن قد ظهرت دراسات نقدية جادة وكافية، بعد لأعمالي القصصية.

كان فوزي بهذا اللقاء التليفزيوني مفاجأة مدهشة للدكتور الدفراوي وهكذا اعتبرني نجما صاعدا من نجوم الحياة الأدبية، وأنني أتمتع بصلات ممتازة بالوسط الإعلامي استدعاني بعد هذا اللقاؤ بشهور، وكلفني بالإشراف غلي مجلة "تجليات السكندرية"، التي كان يرأس مجلس إدارتها، قبلت هذا التكليق منباب تشجيع المواهب الأدبية الجديدة الواعدة، بعيدا عن المجاملة وجبر الخاطر، وبعد بضعة أعداد لقيت المجلة قبولا وتقديرا لا بأس به ثم بدات أفاجأ بموافقات عديدة علىنشر أعمال شعرية وقصصية، جون أن تعرض علي لجنة فحص الأعمال، وعندما رفضت نشرها لضعف

مستواها الفنى، قال لي رئيس التحرير بحيم لا يقبل النقاش: اطلع الدكتور الدفراوي على هذه الأعمال، وأوصي بنشرها"، أدركت، أنني غير قادر على القيام بمهمتي، فاعتذرت عن عدم الإشراف على المجلة، وعوقبت بسبب ذلك بعدم نشر قصصي ومقالاتي بالمجلة.

أصبحت لي علاقات كثيرة في الوسط الصحفى، كنا انتقى الصحفيين الشبان، الذين لم يتورطوا بعد في لعبة التوازنات وحسابات النفوذ والمصالح ويحدوهم طموح جارف لتحقيق وجود مهني حقيقي وصادق، وكان بينهم الصحفي اللامع مصطفى عبدون، الذي قرر أن يتبناني باعتباري أدبيا صاعدا، رغم أنه في سن ابني أكرم، وقد قبلت أبوته لي بصدر رحب وعن طيب خاطر، تقديرا لكفاءته وطموحه، وموضوعيته البعيدة عن المجاملة والنفاقن ولم تنقطع صلتي به على مر السنين والعقود، فوجئت به ذات يوم يقترح على عمل صالون ثقافي شهري للدكتور زكي الدفراوي، أدهشني العرض، قلت له بالصراحة المعهودة التي بيني وبينه: "ليس عند الأستاذ الجديد الذي يقدمه" قال لي بخبرة الإعلامى: "أولا.. هو أستاذ جامعي وله وجه إعلامي جذاب.. ثانيا.. لايهم ما يقوله.. المهم هو ما يقوله رواد الصالون من الأجيال الجديدة"، أقنعني بالفكرة عرضتها على الأستاذ. وافق بلا تردد استمر الصالون عدة شهور، لم تكن هناك أفكار واعدة أو مبادرات خلاقة، غاب الملهم مثلما غابت روح النقد الشجاع، انصرف الرواد. انفض الصالون دونما حاجة لإعلان انفضاضه.

فوجئت بعد ذلك بأن الدكتور الدفراوي قد تفرغ لكتابة الشعر، بعد أن أحيل إلى المعاش بسنوات، وقد نشرت له قصائد كثيرة في الصحف

والمجلات بانتظام ملفت، كانت قصائد رومانسية عاطفية لاتمس الواقع من قريب أوبعيد، علمت بعد ذلك أنه قد أصبح عضوا فعالا في معظم لجان مكتبة الإسكندرية العالمية، بفضل جذالة التعبير ودماثة الخلق والطباع، ثم فوجئت بأنه حصل على جائزة الدولة التقديرية، ولم تسعفني الظروف للإطلاع على حيثيات حصوله على هذه الجائزة، ودوره البارز الذي قام به لخدمة الحياة الثقافية، وحل موعد الحفل المهيب، المذاع على الفضائيات العربية، حيث تسلم الأستاذ صك الجائزة المكتوب بماء الذهب، من السيد الرئيس، مع غيره من الفائزين بشتى الجوائز وبعد انتهاء الحفل، الذي كنت أشاهده في التليفزيون، حاصره الصحفيون من شتى الدوريات المحلية والعربية، ليتعرفوا على إنجازاته ومشروعاته المستقبلية ونضاله من أجل إثراء الحياة الفكرية.

حرصت جامعة الإسكندرية على تكريم الدكتور الدفراوى، باعتباره أحد رموزها المرموقين، انعقد شمل الاحتفال في دار أوبرا الإسكندرية تغير اسمها من مسرح محمد على إلى مسرح سيد درويش إلى دار الأوبرا وسط حشد كبير من الأساتذة والأدباء والشعراء والمفكرين، حرصت على حضور هذا الحفل، لفهم ما يجري وما يحدث. جلست في الصف الأخير من القاعة، لأتجنب حوارات مجاملة، لاتكشف عما تخفيه الصدور، فوجئت بشاب تبدو عبيه اليقظة والتفتح يجلس بجانبي، ويقول لي إنه يعرفني، وقد قرأ الكثير من قصصي ورواياتي، وإنه بصدد كتابة دراسة مستفيضة عنها، أخذ يحدثني بجدية وموضوعية عن سلبيات الحياة الثقافية، ثم فاجأني بسؤال مباشر صريح: "هل أنت مقتنع بأحقية الدكتور زكي الدفراوي لهذه الجائزة،

مع تقديري أنه ودود ومحبوب من الجميع، ولكنه لا يتمتع بطبيعة مقاتلة، ولا قبل بالاختلاف مع الآخرين إذا اقتضى الموقف الاختلاف، وهو هكذا يبدو بلا موقف أو رؤية، عاد يسألني باستنكار: أين تلاميذ الدكتور الدفراوي؟.. دلني على تلميذ واحد من تلاميذه، أثبت وجوده العلمي".

توقف قليلا عن الحديث، وهو بادي الغيظ والنفور عاد يقول لي بأسى عميق، كيف أنه حصل على ترتيب الأول على دفعته، ونجح بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف، ولم يشك أحد في أنه سيعين معيدا بالكلية، ولما تم استبعاده لجأ إلى الدكتور الدفراوى، بحكك نفوذه وتأثيره النافذ، ليستعيد حقه في التعيينن، وبعد أن حصل على وعد أكيد، عاد الأستاذ ليقول له إنه بذل أقصى ما يستطيع ولكنه لم يوفق في مهمه، ومع ذلك طلب منه علاء "ابن الأستاذ" أن يساعده في إعداد رسالة "الماجستير" فبذل معه أقصى جهد ممكن، حتى أنه كتب له الرسالة بأكملها، بحكم الزمالة والصداقة والشهامة .

أوشك الاحتفال على النهاية، بعد أن قدم كثيرون شهادات التكريم المستفيضة، فطلب الشاب الجالس بجواري الكلمة، تجاهله مدير الاحتفال، فاندفع الشاب نحو المنصة، وأخذ يقول أكثر مما قاله لي، بموضوعية، ودونما تجريح. اندفع نحوه حرس الجامعة، قيدوا حركته، وقادوه، عبر الممر وسط الحاضرين ورغم مقاومته، ليخرجوه من القاعة.

توقف بالقرب مني وهم يجرونه، وقال لي وهو مجرور:

– هل تعلم أن علاء "ابن الأستاذ" هو الذي حصل على وظيفة المعيد، بدلا مني رغم أنني أعددت له رسالة الماجستير، التي عين بموجبها؟!

وأخذ الدكتور الدفراوي يغيب عن الأنظار، بعد أن سافر إلى لندن ليجري جراحة قلب مفتوح، لتغيير ثلاثة شرايين، ولم يعد يغادر بيته بعد ذلك، زرته في بيته لأهنيه بالشفاء لم يعد ذلك الأستاذ الوسيم الذي يضج بحيوية هائلة، بدا أنه لا يهتم بشيء مما يدور حوله، تهدلت عضلات وجهه، غامت عيناه بظلمة خالية من أي معنى. لا أظن أنه قد عرفني، لم يمض وقت طويل حتى سمعت بخبر وفاته، حرصت على المشاركة في جنازته، جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان، وبعد أن أودع جثمانه الثرى، صحبني الدكتور سعيد وافي في سيارته، لأبادله حزنا بحزن. قطعنا طريق الكورنيش من مقابر "عامود السواري" حتى قصر المنتزه، وفي أثناء الطريق قال لي، كأنما يلخص تجربة الأستاذ بصدق وتجرد.

– لم يكن له عدو واحد.. لم يحفظ التاريخ أشعاره التي كتبها في سن متأخرة.. لم يتوقف تلاميذه عند حديثه الفياض عن الوحدة الشعورية للقصيدة الجاهلية.. كان متصالحا مع نفسه.. ترك وراءه رصيدا هائلا من المحبة.

لم أشأ أن أقول شيئا، يفسد تداعيات لحظة الفراق، ولكنني قلت في نفسي:

– ولكن الأستاذ ترك ما لقيصر لقيصر.

أنور بدير

رغم أننا دخلنا الكلية الحربية معا، في نفس عام قيام الثورة يوليو 1952، فلم أتعرف عليه إلابعد تخرجنا والتحاقنا بالكتيبة 15 مشاة بمعسكر مصطفى كامل، بالإسكندرية كنا ستة ضباط برتبة ملازم ثان، لم يدخل احدنا الكلية الحربية بكشف أطيان أوكارت توصية من لواء عامل بالجيش، لم يمض وقت طويل حتى تحولت الزمالة إلى صداقة، جعلتنا نقضي معظم أوقات فراغنا سويا، كان من أسرة صعيدية فقيرة، من قرية إخميم محافظة سوهاج.

لم تطل خدمتنا بالإسكندرية أكثر من بضعة شهور، حتى انتقلنا للخدمة بمدينة العريش في سيناء، جمعتنا اهتماماتنا الثقافية، كنا نحمل معنا بعد عودتنا من الإجازات كتبا عديدة، من سلاسل جديدة رخيثة، تتحدث عن الاشتراكية والوجودية والثورات الوطنية وبعض الحقب التاريخية والمذاهب الفكرية، ونقضي معظم وقتنا في المناقشات وتبادل الأفكار، ولم نكن ننشغل كثيرا بما ينشغل به الشباب من أمور اللهو واللعب وصحبة الفتيات.

انتقلنا بعد ذلك بعام للخدمة بمدينة رفح، عند الحدود الدولية مع إسرائيل.

هكذا تواجهت مواقعنا مع العدو الإسرائيلى.. ننشغل بمراقبة العدو ومتابعة تحركاته وإرسال الدوريات الليلية المنتظمة، كان المشهد مثيرا، يدعو للحذر واليقظة والتربص وتوقع الاستشهاد، ومع ذلك لم تنقطع جلساتي المسائية الثقافية مع أنور بدير.. فاجأني ذات مساء بسؤال، بدا غريبا علي سمعى: "هل قرأت كتاب رأس المال لكارل ماركس؟، لما أجبته بالنفي عاد يقول لي: هذا كتاب يستحق القراءة.. لا يجب أن تفوتك قراءته.. سأعطيك كل جزء انتهى من قراءته"، هكذا واصلنا قراءة هذا الكتاب، أخذ يشرح لي مسألة، فائض القيمة، وكيف أن صاحب رأس المال يتقاضى أرباحه من جهد وعرق العامل، وبدا أننا قد أصبحنا اشتراكيين علميين، مع استمرار القراءة والوعى، وفي حدود علمنا، لم نكن نخشى المساءلة، باعتبار أن الثورة ترعى حقوق العمال والفلاحين والفقراء.

ثم حدث العدوان الثلاثي في سبتمبر **1956**، وصدر قرار الانسحاب، لم يكن انسحابا منظما، تفرق شمل الكتيبة، تحت وطأة الضربات الجوية الإسرائيلية، وانسحب الجميع فرادى ومجموعات، كل جسب اجتهاده وجهده وقدرته علي التصرف والمناورة، ثم صدر القرار الدولي بالانسحاب من سيناء وبورسعيد دونما تأخير، ثم جرى إعادة بناء القوات المسلحة، وهكذا تجمع شمل الكتيبة مرة أخرى في معسكر "الهرم" بالقاهرة، ووجدت نفسي وجها لوجه مع أنور بدير، بعد رحلة انسحاب مريرة، شربنا فيها بولنا، وأكلننا حشاش الأرض، وضمدنا جراحننا ببقايا ملابس الشهداء.

اشتركت مع أنور بدير في استئجار شقة بحي المنيل في الجية استغرقنا في قراءة الكتب بنهم شديد، حدثني أنور بدير عن مضمون كتاب "التفسير الماجي للتاريخ"، لكارل ماركس كان يقول لي في نهاية كل مناقشة طويلة: "الاشتراكية هي الحل" سألته ذات يوم، لماذا لا نفكر في التعرف على فتاتين لنقضي معهما وقتا ممتعا، قال لي بصراحة الصعيدي المحافظ: "الحياة قصيرة، لاتحتمل تضييع الوقت في المسخرة.. لم يضيع عبدالناصر وقته في مناجاة حبيبة. الفقراء يحتاجون للأفضل".

لاحظت مع مرور الوقت أن أنور بديير يغيب طويلا عن المنزل، بعد عودتنا من العمل، ويعود متأخرا بليل، لم أعرف أين يذهب، ولم يدعني لمصاحبته، وعندما عبرت عن قلقي واستغرابي قرر أن يصارحني بما يفعل أشعل سيجارة وسحب نفسا عميقا، وبدأ يقول باستفاضة مثالية:

– الوعي بمشاكل الناس لايكفي لتغيير حياتهم.. المطلوب هو الممارسة الواقعية العملية للتعبير عن هذا الوعى.. الوعي بما هو موجود وبما يجب فعله.

أخذ يحكي لي كيف حول وعيه بهموم الناس إلى فعل واقعى، عندما التقى بابن عمه "حمدان"، الذي يعمل سائق تاكسى، ويعيش في حي لاظوغلي بالقاهرة، وشكى له سوء حاله وظلم مالك التاكسي له، عرض عليه أن يشتري تاكسي بالتقسيط، ويصبح شريكا له في الأرباح، وليس عاملا بالأجرة.. وهو يأمل أن يصبح هذا المشروع الصغير نواة لمشروع

اشتراكي كبير.. وهو يتعجب لأنه بذل جهدا كبيرا، طن أنه لاحاجة إليه، لإقناع حمدان بأنه شريك وليس أجير.

عانى أنور بدير من ضيق مادي جاد، ليسدد أقساط التاكسي وتدبير معاش حمدان.

لم يمر عام حتى فشل المشروع، بسبب إهمال حمدان في إصلاح تلفيات التاكسي وصيانته وعدم الانتظام في العمل، فرح بحق الشراكة ولم يتحمل المسئولية، عجز عن مواصلة المشروع بعد أن زادت خسائره.

تضاعفت الخسارة عندما با ع السيارة بأقل من ثمنها الحقيقى، ليسدد باقي الأقساط، أصابته التجربة بصدمة أليمة، حيث أدرك أنه مني بفشل ذريع وهو يمتحن أفكاره.

لاحظت بعد ذلك أن فؤاد مطاوع، زميلنا في الكتيبة وأحد ضباط دفعتنا الستة، وضابط أمن الكتيبة، يوطد علاقته بى، ويطلب مشاركتننا، أن وأنور في السكن، حيث اختلف مع أبيه ولم يعد قادرا على مواصلة العيش في بيت الأسرة، رفض أنور بدير رفضا قاطعا، كان يعتبره انتهازيا متطلعا، لا يوحي بالثقة، ولا يتحرج من الوشاية بأخيه، وتتوافر فيه صفات ضابط الأمن، ولا يبورع عن فعل أي شيء يغذي طموحه ويشبع غرائزه، منذ هذا الوقت، لم يتوقف فؤاد مطاوع عن مطاردتي بأسئلة كثيرة عن أفكار أنور بدير وتصرفاته.. ماذا يقرأ؟ أين يسهر؟ من أصدقاؤه المدنيون؟ شعرت بأنه يستجوبني ويتحرى عن أنور بدير، خصوصا عندما زارني فجأة في البيت، وفي غياب أنور، وأخذ يتصفح كل الكتب الموجودة، ويقلب في

الدواليب متظاهرا بالعفوية ومجرد الفضول، نقلت شكوكي وهواجسي لأنور بدير، فأدرك أن فؤاد مطاوع يراقبه، وربما عرف شيئا عن مشروعه الفاشل وأفكاره الاشتراكية.

لم يكن أنور معاديا للنظام، لم يشعر بأنه يفعل شيئا ضد شرف الجندية ومتطلبات الانضباط العسكري ولم يشأ أن يكون ضحية وشاية لا أساس لها من الصحة، تخلص تماما من كل الكتب التي في حوذته، حرص على أداء الصلوات في مواقيتها، حمل في جيبه مصحف صغير، تعمد الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم وهو يتكلم أو يتجاور مع فؤاد مطاوع، أدركت دوافع هذا التحول المفاجىء الكبير، ومع ذلك أردت أن أستوضح مغزى هذا التحول.. هل هو رده أم مناورة؟1 قال لي أنور بدير ببساطة: "الإسلام يدعو للاشتراكية.. اشتراكية لا يعاقب عليها القانون" وفي أثناء اجتماع ودي على الغداء مع قائد الكتيبة، قال لقائد لأنور بدير: "أنا سعيد بحالة التقوى التي أنت عليها الآن"، هكذا اطمئن أنور على مستقبله ولم تتبدد شكوكه حيال فؤاد مطاوع.

مرت سنوات وأصبح أنور بدير مدرسا بالكلية الحربية، ومحل تقدير قادته، الذين توقعوا له مستقبال واعدا، يجمع بين العلم والقدوة والانضباط، إلى أن حان صدور قرار إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية، وإعلان التعبئة العامة، توقعا لنشوب الحرب، كان أنور منتدبا للتدريس بالكلية الحربية، وكنت أنا منتدبا للتدريس بمدرسة المشاة، تقرر سحب الضباط المنتدبين لتشكيل وحدات جدسدة يتم دفعها إلى جبهة

القتال، وجدت نفسي مرة أخرى أعمل مع أنور في جبهة واحدة، مشكلة حديثا من الجنود الاحتياط، الجنود مازالوا بملابسهم المدنية، والسلاح مازال في الصناديق، ولم يتم إعادة تأهيل الجند، لتمكينهم من تحقيق مهام القتال. حملتنا عربات مدنية "لوارى" مسحوبة من شركات القطاع العام، لتنقلنا إلى مواقع غير مجهزة غربي العريش، لاتوجد اتصالات منتظمة مع القيادات، ولا تعليمات واضحة محددة لحظة قتال، سألني أنور بذهول: ما الذي يحدث؟.. مظاهرة هي، أم استعداد حقيقي للقتال؟! كيف يتم تحرير القدس بفوضى هذه الحشودٍ؟! وحل الخامس من يونيو67، حدثت الهزيمة المروعة أصابتنا صدمة هائلة في مقتر، أخذنا تراجع حصاد مشروع يوليو الثوري، لم تبد لنا بارقة تفاؤل، قال أنور بدير بأسى مرير: "سقطت شرعية يوليو.. لا مفر من شرعية جديدة".

كان أنور قد قطع شوطا طويلا على طريق التدين، تحول أداء الشعائر والطقوس إلى اعتقاد عميق بحتمية الاعتماد على الله وحده واستلهام عدالته لتصحيح المسار، لم يكن حذرا في تعليقاته وآرائه، لم يكن راضيا عن التساعل في محاسبة المسئولين عن النكسة، بدا غاضبا لا تخلو أحاديث من نقد الأوضاع، لم تكن الظروف تحتمل الانتقاد داخل صفوف الجيش. تم القبض عليه مع مجموعة من زملائه المنتقدين، استغرق التحقيق وقتا طويلا، مصحوبا بكل وسائل الضغط المهينة، تمكنت بعد محاولات عديدة من زيارته في السجن بدا لي واثقا من نفسه، يتمتع بإيمان عميق، مطمئنا لبراءته، تعكس ملامحه ما تعرضله من آلام نفسية وجسدية قال لي بصراحة، ولم يكن قد فقد شجاعته: "نجح فؤاد مطاوع في الوشاية بي..

لمس يستطيع أن ينسى الخصومة القديمة.. استغل موقفه في جهاز المخابرات.. ليست هناك أدلة على شروعي أي أي عمل تحريضي أو انقلابى.. مجرد تعليقات غاضبة في مجالس الأصدقاء لا تمثل اتهاما ولا تثبت جريمة.

ثم حدثت المفاجأة. استدعاه مدير المخابرات هنأه ببراءته اعتذر له عما أصابه من إيذاء. أبلغه بأنه يستطيع أن يعود إلى وحدتي كأن شيئا لم يكن، رفض أنور بدير قال بإباء واعتداد: هذا مستحيل.. كيف أواجه جنودي بعد كل ما تعرضت له من اتهامات وإهانات؟ عرض عليه المدير أن يختار أي وظيفة مدنية في أي وزارة، قال أنور وهو يعتذر عن القبول: احترامي لنفسي يمنعني من قبول أي ترضية، لا تعوضني عن اتهام ظالم.. ليس عندكم تعويض يشفيني من الشعور بالقهر وامتهان الكرامة.. ومع ذلك أشكرك من كل قلبي علي صدوقر الحكم ببراءتى.. استأذنك في قبول استقالتى، واعتذاري عن قبول معاش"، هذا ما حكاه لي أنور بعد براءته.

تواصلت صداقتي معه بلا تحفظات أخذت أتابع باهتمام كيف سيواصل حياته، فوجئت بأنه التحق بجامعة الأزهر، وحصل على شهادة العالمية بعد أربع سنوات، لم يعد بيننا حوار مفتوح على كل الآراء، شعرت بأنه قد تحول إلى صندوق مغلق، يتعامل مع الواقع بمنطق الرفض والاحتجاج، ويغريني من طرف خفي، ومن منظور دينس باتباع نفس الخط ونفس الاتجاه، أبلغني بعد ذلك أنه حصل على عقد عمل بالتدريب في

السعودية. علم بأنني حصلت على ليسانس الآداب قسم لغة عربية، فقال لي وأنا أودعه في المطار: يمكنني أن أدبر لك عقدا لتلحق بي هناك، بجوار الكعبة ومسجد الرسول، ليكون ذلك متمشيا مع توجهاتي وأفكاري.

انقطعت صلتي به سنوات طويلة، لا أذكر عددها، فوجئت به وأنا في غمار انشغالي بنشاطي الأدبي والصحفي، يبصل بي ويدعوني لزيارته "بالفيللا" التي يملكها في حي الزمالك بالقاهرة شعرت برهبة محيرة وأنا أدخل من باب القيللا، استغرقت بعض الوقت وأنا أقطع الممر الذي يتوسك حديقة مغطاة بشتى أنواع الزهور. لاحظت عربة "بيجو"، تظهر مقدمتها من باب "جراج" مفتوح وتبدو من موديل نفس العام، جلسنا في الشرفة الواسعة المطلة علي النيل، انتظرت أن يحدثني عن تجربته وإنجازاته لم يقل شيئا متصلا بالواقع والحياة، بل حدثني عن جوهر التجربة الإيمانية وما تتطلبه من اتباع فريضة الجهاد لمواجهة المرتدين والكافرين، من أمثال "السوفيت" في أفغانستان، والصهاينه في القدس، والأنظمة الخانعة في درك الظلام.

استشعرت بقلق، لم تخف عني أسبابه ودواعيه أدركت أن أنور بدير الذي بدأ ماركسيا هاويا، قد تحول إلى مسلم أصولي عنيد، لم يكن عندي ما أقول، مثلما لم يبد أنه يسمح بأي خلاق أو اختلاف، توقعت أن أسمع يوما أنه انضم إلى العرب المجاهدين الذين يقاتلون "الكفار السوفيت" في أفغانستان. شعرت بأنه لم تعد هناك دوافع أو مبررات لاستمرار الصدقة التي جمعتني بأنور بدير عبر أحداث جسام، اللهم إلا رفعت راية فريضة

الجهاد، هكذا انقطعت صلتي به، ولم يعد بيننا اتصال أو سؤال ثم جمعتني الصداقة، بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد **1979**، بالزميل فؤاد مطاوع، في نادي الجزيرة بالقاهرة، علمت منه أنه أصبح يشغل منصبا كبيرا في جهاز المخابرات، تحدثنا طويلا في تداعيات ما بعد المعاهدة، وما تلاها من تحولات ومتغيرات، إلى أن سنحت الفرصة لسؤال عن أخبار زميلنا السابق أنور بدير، قال بلهجة الواعي العارف: "الدنيا تغيرت الآن.. التيار الإسلامي أصبح قويا رهيبا، بعد استعداد الشيوعيين والناصريين..

أنور بدير أصبح قطبا كبيرا، يعمل له حساب، ولا تحد أحلامه حدود"، عاد فؤاد مطاوع يقول لي بلهجة لم أفهم مغزاها يمكنك معاودة الاتصال به.. ربما تفوز بقطعة من الكعكة.. لا أعرف كيف انتابني الفضول لمعرفة أخبار أنور بدير بعد حادث المنصة، عام **1981**، حرصت على الاتصال بفؤاد مطاوع، الذي ضرب لي موعدا في نادي الجزيرة، حيث يجتمع أصدقائه بانتظام، بعد أن أصبح مديرا لفرع شركة "كوكاكولا" بمصر، قال لي وأنا أسلم عليه، وقبل أن يدعوني للجلوس.

– تريد أن تسألني عن أخبار أنور بدير.

– هذا ما أريد بالضبط.

هاجر إلى أمريكا بعد أن حول ملايينه إليها.

– هل أصبح عنده ملايين؟

– يصعب أن تعرف كيف حصل عليها.. هو الآن نجم من نجوم العولمة.

غرقت في ضحك كالبكاء، أخذت أجفف دموع الضحك، وأنا أسمع فؤاد مظاوع يقول بواقعية، تتسم بالمبالغة، وبشطحة خيال له مغزاه.

– ربما يحلم الآن بأن يكون صاحب شركة متعددة الجنسيات.

محيي بدران

لم أفهم ولم أتصور كيف عرض عليّ أبي – وهو مدرس اللغة العربية – أن أتعاطى درسا خصوصيا في اللغة العربية، في منزل الأستاذ محيي بدران، في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، كنت في السنة الثالثة الثانوية، وكان الأستاذ "محيي" هو الذي يدرس لفصلي اللغة العربية، لا أستطيع أن أنساه منا – نحن التلاميذ نفرح بحصته، نسترخي لصوته العذب الجميل، لأسلوبه السهل في الشرح والتعبير.. ممشوق القوام، فارع الطول، نرتاح لملامح وجهه المتناسقة، الهادئة المسترخية، يبدو مثالا لأب خان عطوف، لم نره غاضبا ولومرة واحدة، صبور طويل البال كأنه ليس من طينة البشر.

لم أتردد لحظة واحدة في تحصيل درس خصوصي على يد الأستاذ محيي بدران.

وبدأت الدروس. كنت أتلهف على موعد الدرس في منزله، بدا الدرس كأنه لقاء صحبة بين صديقين، لقاء ودود بين أب وابنه، كثيرا ما أشرد في دروس النحو والبلاغة، فيتوقف عن التدريس، يسألني ماذا أشرب، أطلب كوب شاي بلا حرج، يأتي الشاي مصوحبا بطبق "هريسة"يسألني عن أحوالى، ماذا أحب وماذا أكره؟ يسألني عني زملائي واصدقائي.. كيف أتعامل معهم ومن هو الصديق المفضل؟ ثم نعود للدرس

وأنا أكثر استعدادا للتلقي والفهم، هكذا تقدمت كثيرا في النحو والبلاغة، بل أصبحت أحب اللغة العربية لدرجة العشق، شعرت بأنني يمكن أن أصارحه بكل ما يجول بنفسى، دونما خجل أو حرج أو تردد، شكوت له مرة من سوء معاملة أبي لأمى، فطلب من أن أكتب ذلك في موضوع تعبير أصبحت أتعجل موعد الدرس ارتدي أحسن ما عندي أقطع الطريق من شارع "الكنوز" بحي محرم بك إلى شارع صبري أبو علم بحي منشا، وكأنني أقضي رحلة سعيدة أتمنى أن تطول سألته ذات مرة لماذا أفهم منك الدروس ولا أفهمها من أبى؟ طلب مني أن أجتهد في معرفة السبب قلت له إني عقلي يبوقف واشرد طويلا، ولا أستطيع أن أسترجع ما سمعت.

– ربما تخاف من أبيك وسلطته عليك.. الخوف مطلوب في التربية، وليس الرعب.

فكرت طويلا فيما قال: عدت أقول وأنا أفتح مغاليق صدرى.

– ربما أخاف من إلى حد الرعب.. يتوقف عقلي وأنا أتأمل ملامحه الصارمة.. يصل غضبه أحيانا إلى حد العنف والاعتداء.. أهرب من صحبيتي حتى لو تظاهر بالرقة والملانية والممازحة أحيانا.

لا حظت أنه يختار الكلمات وهو يقول لى:

– أنا أعرف أنه يحبك كثيرا.. أعرف منه أنك أحب أبنائه إلى نفسة.. الأبناء أحيانا لايفسرون غضب الأب تفسيرا صحيحا.. غالبا ما يكون غضب الآباء في صالح الأبناء. سألته بتلقائية، تلغي الحاجز بين التلميذ ومدرسه.

– هل هو الذي طلب منك أن تعطيني درسا خصوصيا؟

– لاحظت أنك تشرد طويلا في الفصل.. لاتتابع ما أقول.. رأيت أنك تحتاج إلى اهتمام خاص.

سألته دونما تحفظ مطلوب.

– هل لأنه رئيس مادة اللغة العربية في المدرسة؟! رمقني بنظرة عتاب وهو يقول بموجة أبوية.

– لاتكن سيئ النية.

أردت أن أعتذر عن صراحتي الفجة فقلت.

– لو أنني قلت ذلك لأبي لصفعني على وجهى.

– دعنا نعد إلى الدرس.

لا أنسى أنه كان يقدم لي "كبشة" من "الملبس" و"البومبونى" في نهاية كل درس، كنت أحرص على أن تكفيني حتى موعد الدرس القادم، انتهى العام الدراسى، وحصلت على أعلى تقدير في امتحان اللغة العربية، لم احصل عليه من قبل. حرصت على زيارة الأستاذ "محيى" أثناء الإجازة الصيفية، كان يستقبلني بفرح وترحاب، سمح لزوجته أن تجلس معنا في الصالون، تسألني عن أحوالي وهي تقدم لي طبق "بسبوسة" زالت بيننا الكلفة تعاملت معها كأم ثانية، ربما كانت أكثر عطفا وحنانا من أمي.

حل موعد بدء العام الدراسي التالي.. طلبت من أبي أن أواصل دروسي الخاصة مع الأستاذ "محيى".. لم يتردد لحظة أغلب الظن أنه شعر بتحسن أحوالي النفسية، أصبحت أقول للأستاذ، أصبحت أقول له ما لا أقوله لأبى، انكسر حاجز الخوف في داخلي، عشقت اللغة العربية، نمت

وترعرعت هوايتي الأدبية، ترددت طويلا قبل أن أعرض عليه أول قصة قصيرة كتبتها. أكد لي أملك موهبة حقيقية تحتاج لتدريب وإصرار.

وجدت نفسي مع الوقت قريبا من أبي أتحدث معه ببساطة وتلقائية أقول له ما كان يتعذر قوله من قبل، أعبر له عن رغبتي في الذهاب إلى السينما، في مقابلة أصدقائى، في لعب كرة القدم في الملعب المجاور للمنزل، لم تواتني الشجاعة لأطلب منه موافقته على صحبة بنت الجيران لأتسامر معها ونحن جالسان على شاطئ "الشاطبى".

حل موعد آخر درس في آخر عام دراسي "الثانوية العامة" حلت لحظة فراق أبوية مؤلمة، لم أحتمل جزعي فبكيت بحرقة، احتضنني بحرارة. ربت على ظهري بعطف قدم لي منديلا أجفف به دموعي، لم تكن قد اخترعت بعد المناديل الورقية، قال لي بتشجيع: أنا في انتظار ما سوف تكتبه من قصص، وعدته أن أكون عند حسن ظنه، بدت اللحظة لحظة ميلاد مشروع كاتب، هو بالتأكيد صاحب الفضل في هذه الولادة إن تحققت. حرصت زوجته على توديعي في نهاية الدرس الأخير، بدت سعيد وهي تجاذبني أطراف الحديث، قدمت لي حافظة كتب، كهدية من أم لابنها نصحتني بالمثابرة والاجتهاد والتفوق.

حانت لحظة الوداع، أوصلني الأستاذ محيي حتى باب شقته. حاولت تقبيل يده فسحبها من بين طفي وهو يستغفر الله، خطرت لي فكرة طارئة، لم تخطر على بالي من قبل، قلت :

– لم تعرفني بأبنائك.. هل تسمحح لي بأن أتعرف عليهم؟

طأطأ رأسه . صمت قليلا. شرد طويلا، رمقني بنظرة كابية حزينة، أدركت أنها تخفي شيئا، لايستحب الإعلان عنه، قال لي بمودة بالغة: "دعني أراك بانتظام أثناء الإجازة.. انتظر زيارتك كلما سنحت لك فرصة".

انتهزت فرصة مواتية، كان أبي قد دعاني لمشاركته في سماع قصيدة أم كلثوم "ولد الهدى فالكائنات ضياء" التي تذاع علي بالراديو في حفلتها الشهرية، كانت المودة قد قطعت شوطا طويلا بيني وبين أبى، ما إن انتهت الوصلة حتى سألت أبي عما إذا كان للأستاذ "محيى" أبناء.

– لماذا تسأل ؟

– لم ألاحظ وجود أبناء في منزله.

– هو فعلا ليس له أبناء.

أصابني ذهول غامض. انتظرني أبي حتى أفيق ممن شرودي، قال بحكمة لم أعيها من قبل:

– أردت أن أعوضك عما ينقصك، وأعوض الأستاذ محيي عما ينقصه.

طلبت توضيحا لهذه الجملة المركبة، فعاد أبي يقول:

– كان هناك ما يفصلني عنك، فرأيت في الأستاذ "محيى" بديلا لي.. وكان الأستاذ "محيى" في حاجة للتعبير عن أبوة مفقودة.

مرت سنوات حتى جاء ذلك اليوم الموعود بالحزن والشجن، لبس أبي رابطة العنق السوداء وأستعد لمغادرة المنزل، بعد أن أبلغني بوفاة

الأستاذ "محيي"، وإنه ذاهب إلى للمشاركة في الجنازة، لم أتردد لحظة في مصاحبة أبي وأنا أبكي بمرارة صممت على مصاحبة الجثمان حتى تم إيداعه في مثواه الأخير، جلست وحدي طويلا بجوار فوهة القبر المسدودة، حيث تحولت الثواني والدقائل إلى دهر مديد، لم أشك لحظة في أن وجه الراحل يحمل نفس الملامح المتناسقة الهادئة المسترخية.

مرت سنوات أخرى قبل أن أنجز مجموعتي القصصية الأولى التي كانت على وشك الإصدار، قررت أن يكون الإهداء للأستاذ "محيي بدران" على سبيل الوفاء وحفظه الجميل.

إلى سر الأستاذ "محيي بدران".. إلى من علمني الحب وأسرار الحروف والكلمات.. إلى صاحب الفضل في إصدار هذ المجموعة القصصية".

ياسين الزحتري

لم أشعر أنني دققت النظر ف ملامح وجه العريف ياسين الزحترى حامل جهاز اللاسلكى، الذي كان يرافقني كظلي في مركز الملاحظة فوق قمة جبل عتاقة، بحكم أنه يحمل وسيلة اتصالي بالرؤساء والمرءوسين، لم أتبين ملامح وجهه منذ ثمانية عشر يوما، منذ الساعة الثانية من ظهر يوم 6أكتوبر 1973، حتى الساعة الثانية عشر من ظهر يوم 22 أكتوبر من نفس العام.

كانت هناك جبهة مشتعلة بشتى أشكال وأنواع القتال شرق قناة السويسن العبور ثم تدمير خط بارليف، ثم التوغل شرقا نحو مضايق سيناء ثم صد الهجمة المضادة الشرسة، ثم ثغرة "الديفرسوار" وحصار مدينة السويس ثم وقف إطلاق النار ظهر يوم 22أكتوبر 73، لاأظن أن العريف ياسين قد فهم شيئا، عندما وضعت سماعة التليفون، وأبلغت الرائد صبري "رئيس العمليات"، ببلاغ وقف إطلاق النار، الذي وصلني عبر التليفون لا أظن أن ياسين قد فهم شيئا عندما سألني الرائد صبرى: "خل كانت حرب تحرير أم حرب تحريك لوضع تجمد قرابة ستة أعوام؟!

لم أكن قد تخليت عن شريط الحبوب المعدئة الثاوي في جيب "الأقرول" منذ عام 1967، خلعت حذائي لأول مرة منذ السادس من

أكتوبر، شممت رائحة العفن المتصاعدة من قدمي المتورمتين، سارع ياسين بإحضار زمزية ماء وغسل قدمي، كان يفعل ذلك بمحبة وعن طيب خاطر، ولم يكن هناك ما يجبره على فعل ذلك كنا أعامله كأحد أبنائي، نتعايش معا أكثر مما أتعايش مع أبنائي، يغسل ملابسي ويعد لي الطعام وهو غير مكلف رسميا بذلك لا أظن قد فهم شيئا وأنا أقول لصبري في لحظة استشراف مبكرة، يبدو أننا نعيش لحظة فارقة بين زمان مضى وزمن قادم".

أخذت أتأمل وجه العريف ياسين في لحظة فراغ موحشة، وكأنني أشعر بوجوده لأول مرة منذ 18 يوما، بدوت كأنني أعيد قراءة كينونته، كينونة كائن يوهم بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم وليس له أي دخل في أي شيء، لم أستطيع قراءة أي رد فعل لياسين وأنا أقول لصبري: "حان الآن موعد الهبوط من عتاقة"، لم يبد عليه أي انفعال بعد أن قال صبري "ربما نضطر لصعود هذا الجبل مرة أخري ذات يوم قادم"، ربما كان الانفعال من وجهة نظره مخالق للأوامر والتقاليد العسكرية.

ياسين ينحدر من سلالة قوى الشعب العاملة، يشارك في تكاليق الحرب. لا يحيد عن مبدأ الطاعة العمياء.. حاضر يا فندم.. تمام يا أفندم.. فكان عريضان.. أسنان صفراء بسبب التدخين وكثرة شرب الشاي الثقيل.. بشرة جافة خشني بسبب نقص فيتامين "أ".. عين تخزن الصور ولا ترى ما وراء الصور.. إذن تسمع الأوامر بالنهار وتنفذها بحذافيرها، وآيات الذكر الحكيم بالليل من مذياع قديم متهالك، حصل على شهادة الإعدادية بعد أن تكرر رسوبه ثلاث مرات، يستوعب بالكاد مغزى عناوين كثيرة كانت تقال له في دروس التوجيه المعنوي مثل: القومية

العربية، الاشتراكية، الستعمار وأعوان الاستعمار، وتحالف قوى الشعب العاملة، لم يكن من نوعية الجند الذين عبروا وحطموا خط بارليف، الجنود العابرون من ذوي المؤهلات العليا الذين تعلمو في الجامعات في زمن الثورة بالمجان، لم يستكمل ياسين تعليمه لأسباب خاصة، توفي أبوه وهو في الثالثة عشر من عمره، فكان عليه أن يعول أسرته، أمه وثلاث بنات، سالته ماذا سيفعل بعد تسريحه من الجيش قال إنه سيزرع ما تبقى من الفدادين الخمسة التي حصل عليها ابوه بموجب قانون تحديد الملكية الذي صدر بعد شهور من قيام الثورة، سألته هل يفكر في الزواج؟ قال بلا تردد: "ليس قبل أن تتزوج إخواتي البنات الثلاث.. سألته عما إذا كان عضوا في الاتحاد الاشتراكي "أجاب بأنه لم يفهم مأ قصد إليه. استمر تعاملي مع ياسين الزنحرى، حاملا لجهاز اللاسلكي قرابة سبع سنوات، منذ عبرت بوحدتي قناة السويس، منذ إعلان حالة التعبئة قبل حرب يونيو **67**، لأتمركز في منطقة "الختمية" قرب العريش، ياسين جندي ذكي نشيط لما، يعتني بالجهاز أكثر من عنايته بنفسه. يذكرني بالتوقيتات الهامة قيل حلولها، كان ما كان من أمر النكسة، وبدأ الانسحاب، طويت مع إبراهيم طريف الألم والمرارة، شربنا بولنا، أكلنا سويا عيدان النباتات الصحراوية الجافة، نمنا في الطل، تورمت الأقدام، عدنا إلى القاهرة أعيد تشكيل الوحدة التي أصبحت قائدا لها تمركزت في موقعي الجديد غرب مدينة السويس، حفرنا الموقع الجديد بالأظافر والأنياب، تحملنا نيران المدفعية وقنابل الطائرات طوال حرب الاستنزاف، عانيت من إعياء شديد، رفضت الانتقال إلى المستشفى

الميـدانى. إبـراهيم يقـدم لي الـدواء في مواعيـده، يغـريني بالطعـام المسـلوق، يقول كلمات بسيطة وأمثلة ريفية طيبية.

حـل موعـد العبـور التـاريخي الحاسـم في السـادس مـن أكتـوبر، كنـت قائدا للوحدة التي تدافع عن مركز قيادة الجيش الثالث الميداني، ضد أي هجوم أرضي أو إبرار جوي، تخندقت في مركز القيادة الأمامي فوق قمة جبل عتاقة، تابعت عبور المشاة بالقوارب المطاطية، ونصب الكباري وفتح الثغرات في جـدار "بارليـف" وعبـور الـدبابات والعربات المصـفحة أرسلت البلاغات.. بلاغا تلو بلاغ، ياسين يتابع بلاغاتي وأوامري، يحفظها ويذكرني بالتوقيتات الهامة قبل حلولها، أحيان ما يأخذ التمامات من المرؤوسين نيالة عني، ويبلغهم بالتعليمات التي أكلفه بإبلاغها.

حل وقف إطلاق النار، قام السلاح بمهمته، وحان موعد الجلوس إلى مائدة المفاوضات كنت قد أصبت بشـظية "نافـذة" في سـاقي الأيسـر أثناء غارة جوية على مركز القيادة استجاب قائد الجيش لرغبتي في الخدمة بالإسكندرية "بلـدي" لأرعـى أسـرتي الـتي ابتعـدت عنهـا قرابة ثمان سنوات وصـل أمـر النقـل، تنبهـت إلى تلـك الورقـة المرشـوقة في حافظـة سـجل العمليات، كانت بمثابة خطاب من ياسين وقع نظري على الجملة الأخيرة من الخطاب: "ليكن في معلوم أني عايز أخدم معاك في الإسكندرية".

وأخذت ياسين معي إلى وحدتي الجديدة بالإسكندرية.

لم يمض وقت طويل حتى حان موعد تسريح دفعة من الجنود بعد انتهاء خدمته.

كان ياسين ضمن هذه الدفعة، شاركت في حفل الوداع، بدا ياسين نشيطا كعادته.. ودودا عطوف.. يوزع الشاي على الجنود.. يوزع "الجاتو" بلا تفرقة بين الرتب.. يطلق نكته هنا وقفشة هناك.. يجني الكثير من البسمات، وبريق رضا العيون كان قد قام بواجبه وهو يشعر الآن بأنه قد أصبح حرا طليقا، متخففا من ضغط الأوامر والتعليمات.

حضر ياسين إلى مكتبي ليودعني وداعا خاصا، تجاذبني شعور أن لحظة الوداع هذه التي تبدو موقفا حياتيا عاديا، وشعور جمعني بياسين تحت وابل القصف والنيران وتناثر أشلاء الشهداء.. ودعت ياسين بكل ما أكنه له من تقدير واحترام، ذكرني بأنه يحتفظ بعنواني داخل حافظته، التي لم يغيرها، منذ أن كانت في جيب "الأفرول" أيام إعلان التعبئة لحرب يونيو 1967.

توقف ياسين عند باب المكتب، وهو في طريقه إلى الانصراف الأخير، استدار بهدوء ليرمقني بنظرة جديدة، نظرة إنسان استعاد حريته، ولم يندم على ما فات، قال لي بشجاعة خالية من أي حرج: على فكرة يا فندم.. أنا كنا فاهم كل حاجة.. واع بكل اللي جرى.. فهمت أشياء كثيرة من حديثك مع زملائك في مخبأك تحت الأرض.. قلبي معك.. ربنا يوفقكم"، عندما قلت له بأنه لم يعطني إحساسا، ولو مرة واحدة، بأنه يفهم، قال باقتضاب مذهل، وقبل أن يغيبه الباب.

– ليس مطلوبا من أن أتكلم.

وحيد ثابت

استوقفني وأنا خارج من المستشفى العسكري بالإسكندرية بادلني السلام والأحضان، هو يعرفني بالتأكيد، كان قد سقط من ذاكرتي تظاهرت بأنني أعرفه، فبالغت في الترحيب به، وأنا أمسك بكيس العلاج الشهري لمرضى السكر والقلب بيد من حديد، قال لي بظرف وعشم: أنت لا تذكرني يا كذاب". أخفيت حرجي بضحكة صاخبة وجاهلة في نفس الوقت.

عاد يقول: إزيك يا طلعت يا راضي.. اللواء الخامس.. زملاء في النكسة وحرب أكتوبر".

استعادت ذاكرتي ملامح وجهه، ولم تستعد اسمه. عدت أحتضنه بحماس وأطبطب على ظهره، أدرك أنني لا أذكر اسمه، فأعفاني من الحرج وهو يقول: وحيد.. وحيد ثابت يا نذل "عدت أحييه وأغرقه بالسلامات، وأنا ألاحظ كيس الدواء الذي يحمله سألته بمودة.

– ما هي أمراضك الآن يا زميل السلاح؟

– الروماتزم والعمود الفقري والبروستاتا.. والبقية تأتي.

استعدنا ذكريات ميدانية كثيرة معارك رفح والعريش وأبو عجيلة والسوييس.

عاد يقول لي بحزن حقيقي: لك عندي خبر مؤسف.. البقية في حياتك.. مات زميلنا فوزي سليمان منذ أسبوع.. أجرى عملية قلب مفتوح.. غيروا له شريانا وكان يحتاج لتغيير ثلاثة شرايين، تألمت كثيرا. كنا نحمل إعجابا لا حد له بشجاعة وجرأة فوزي سليمان دمرت وحدته عشر دبابات "ميركافا" إسرائيلية بعد العبور المدهش لقناة السويس في حرب أكتوبر، عاد يسألني ماذا أفعل في هذه الأيام، قلت له ببساطة: أكتب قصص وروايات لا يقرأها كثيرون". سألته بدوري عما يفعله هو الآن: عندي محل "نت كافيه".. زبائني من الشباب يستجضرون ألعاب التسلية والأفلام الإباحية.. ونادرا ما يستحضرون مواقع المعلومات والأبحاث.

دعاني لنجلس قليلا في محل "فينوس" القريب من لا حظننا ونحن ندخل المحل وجود عربة مأكولات متواضعة بجوار الرصيف، ومكتوب عليها "سندوتشات الأقصى" استغرقنا في ضحك ممرور، وقال وحيد ثابت: "لم يبق من الأقصى سوى سندوتشات".

استدرجنا الحديث إلى زملاء السلاح اكتشفنا أن معظمهم قد فارق الحياة.. منهم من استشهد ومنهم من توفي فوق سرير مستشفى أو سرير الزوجية، رجوته أن نتحدث في أشياء مفرحة فقال لي بظرف: أعاكس الفتيات في الطريق كلما حانت فرثة.. أشعر أنني عدت شابا مراهقا.. أطلب المحبة والمشاغلة وليس أكثر من ذلك"، سألني عما إذا كنت أحمل بين جوانحي حلما من الأحلام، فقلت له بهدوء مريب: "أتمنى لو شاركت في الانتفاضة الفلسكينية أو المقاومة اللبنانية" قال لي بعتاب مشكوك فيه:

"يبدو أنك لا تؤمن باستراتيجية السلام والاستقرار"، عاد يقول لي بتأنيب لا يخلو من مزاح: "عليك اللعنة".

هكذا تحولت زمالة السلاح، بعد فترة انقطاع طويل، إلى صحبة وصداقة في الوقت الضائع، أصبحنا نلتقي من آن لآخر في مقهى أو "كافتيريا" "والى" المطلة على البحر، قال لي ذات مساء وهو يتامل زرقة البحر العالي من الأمواج الراقد في صمت" من أسطول يوليوس قيصر إلى أسطول نابليون إلى الأسطول الإنجليزي إلى الضفادع الإسرائيلية في حرب أكتوبر، يا قلبي لا تحزن"، قلت له ببراءة: "البحر الآن يشارك في استراجية السلام والاستقرار".

وفي لقاء آخر سألني عما أكتبه لقرائي في قصصي ورواياتى، كنا متوجهين إلى المستشفى لاستلام العلاج الشهري الذي لن يبوقف إلا بتوقف الحياة، قلت له باقتضاب حتى لا أشغله بما لا يهمه: أكتب الآن روايات "عبثية"، استغرق في الضحك وأصر على معرفة معنى كلمة "عبثية" رغبت في تبسيط المعنى فقلت له: عندما تبكي أمور الحياة، ويختلط الحق بالباطل، يفتقد الناس أهدافا تجعل لحياتهم معنى وقيمة، فيعبر الكاتب عما يشعر به الناس وعاد يقول لي وهو يقهقه حتى دمعت عيناه: "وجودنا بالمستشفى الآن فرصة لعرض نفسك على طبيب أمراض عقلية.. لولا أنك زميل سلاح وصديق لقطعت صلتي بك.

بدأنا نتزاور عائليا تعرفت زوجتي على زوجته، كثر بيننا الحديث عن الأحوال العائلية، كان يعيش وحده مع زوجته سألني عن أخبار أبنائي أثناء

جلسة عائلية في منزلي، فعدت بدوري أسأله عن أبنائه.. بدا عليه الحزن وهو يقول: استهد ابني الأكبر بعد أن تطوع لمقاتلة الملاحدة الروس في أفغانستان.. اشتغل ابني الثاني في تجارة الأسمنت، وكان يبيعه للتجار الفلسطيين، الذين كانوا يبيعونه للتجار الإسرائيليين لبناء الجدار العزل.. ابنتي تعمل مدرسة بمدرسة أبي قير الحكومية، وتصرف مرتبها في المواصلات والمصروف الشخصي لأولادها، استغرق في صمت شارد وعاد يقول لي بمرارة: نصحتها بالاستقالة والتفرغ لتربية أولادها فقالت إنها تخشى أن يستغني صاحب شركة "فرجيالو" عن زوجها ذات يوم، فلا يصبح هناك طعام وكساء.

اتصلت بي زوجته ذات يوم فهمت منها أن وحيد ثابت نقل في جوف الليل إلى المستشفى بعد أن عانى من آلام حادة لا تحتمل، ذهبت على الفور إلى المستشفى. لم يعد العلاج الشهري يكفي لمواصلة الحياة، علمت من الطبيب أنه يعاني من مرض خبيث استشرى في جسده، وليس هناك أمل في إنقاذه والمسألة مسألة أسابيع أو شهور، جلست بجوار سريره بالمستشفى، ولا أجد ما أقول، غابت الضحكة والنكتة والقفشة وذكريات زمالة السلاح. بدا في حالة تقبل واستسلام للمصير، كانت طاقته الإيمانية في أحسن حالاتها، بدا هادئا هدوء اليائس الذي تساوت عنده كل الأشياؤ، قال لي بلهجة لا تخلو من سخرية واستخفاف: ألا تفكر في كتابة قصة حياتي في رواية عبثية؟ ولم أجد ما أقوله لأعلق على قوله الساخر، عاد يقول بمزيد من الهدوء والطمانينة: راجعت حياتي خلال الأيام القليلة الماضية، ففهمت معنى كلمة العبثية التي حدثتني عنها ذات يوم.. المرض

الخبيث يجعلك تفكر فيما لم تكن تفكر فيه. مررت بثلاثة أيام قاسية وعصبية، قبل أن أسير في جنازة وحيد ثابت. فكرت طويلا أثناء عودتي من الجنازة، أخذت أبحث عن مضمون القصة التي أشرع في كتابتها عن حياة وحيد ثابت.. وضعت عنوانا مبدئسا للقصة، على أن أقوم بمراجعته وتمحيصه بعد ذلك: "لم يستشهد في حروب أربعة، ومات محسورا في حقبة استراتيجية السلام والاستقرار".

سمير دهب

ربطتني به صلة قرابة، منذ الشباب الباكر، اعتبرته علاقة عابرة، لا تتعدى حدود القرابة، ولا ترتقي لدرجة الصداقة، ومع ذلك فقد كان حريصا على توطيد علاقته بى، ينتهز كل فرثة أو مناسبة ليجمعنا مجلس يتيم، لانفع من ولا ضرر..

لم يكن عنده شيء يمكن أن يقوله، ولكنه مستمع جيد، لا يمل الاستماع لساعت طوال، ولا يوحي لك بأنه استوعب ما سمع، أو أن قريحته جادت عليه بتعليق ينم عن وعي بموضوع الحديث أصبحت أتحمل عبئا كبيرا في علاقتي به، أضيق أحيانا كثيرة كان علي أن أتكلم بلا انقطاع، وكان عليه أن يسمع بلا انقطاع، ويقرر في نهاية الحديث موافقته التامة على كل ما قلت، ولا ينسى أن يذكرني بأنني شخص منفتح الذهن، ومثقف، واع، أفهم في شئون دنيانا وأتابع ما يجره في العالم، وإنني أهم وأعز صديق له في حياته، وإن أغلى أمانيه أن أواظب علي الصلاة، حتى يجمعنا الله في جنة النعيم.. لم أعد أملم إلا أن أبالغ في مجاملته، وإظهار حماس مصطنع كلما قابلته، وإبداء فرحة ليس لها دوافع حقيقية.

أصبحت أتابع أخباره بفضول كبير لعلي أستطيع أن أكون فكرة واضحة عن شخصيته، لا أذكر أنه قد اتخذ قرارا واحدا بكامل جريبه وبملء إرادته. التحق بكلية الهندسة لن مجموع درجاته في الثانوية العامة

سمح له بذلك. عمل بهيئة النقل بالإسكندرية لأنها الجهة الوحيدة التي قبلت تعيينه بها، أصبح المقيم الوحيد مع أبيه وأمه في بيت الأسرة بعد زواج إخوته واخواته، انحصرت حياته في عمل تقليدي، لا يحقق طموحا ذا ملامح واضحة.. مثلما اقتصرت حياته على مجموعة الأصدقاء تجمعه بهم مجالس الأنس والسمر كان طربما معهم إلى حد السفه، يستهلك مرتبه الشهري في الأيام الخمسة الأولى من كل شهر، ثم يعيش ضيفا على أبيه باقي أيام الشهر، ضيف لا مفر من استضافته، ابن مبذر واب متساهل.

لم يكن في حياة سمير دهب سوى صديق واحد أوحد، يتصف بالإخلاص والجديةن هو المهندس همام أحمد، الذي قرر أن يؤمن حياة سمير في ظروف حرجة، عرض عليه أن يشاركه في إنشاء مصنع صغير لإنتاج البويات الخاصة بأعمال البناء، برأس المال وسمير بالجهد والخبرة، خطا المشروع خطواته الأولى بنجاح، أبدى سمير حماسا منقطع النظير، لم يكن يمتلط القدرة على الالتزام والمثابرة، وتنمية الاستعداد المطلوب، واكتساب خبرة السوق وآلياته، هكذا فتر حماسه وقدرته على المواصلة، لم تتوفر لديه رغبة داخلية حافزة لتحقيق النجاح وإثبات الوجود فشل المشروع وذهب كل طرف إلى حال سبيله، وبقيت ملامح صداقة قديمة، تعيش على ذكريات باهتة، وتزجية أوقات الفراغ، وتبادل أخبار اجتماعية عامة.

مضت بعض سنوات تصورت خلالها أن سمير دهب لم يفكر إطلاقا في الزواج وتكوين أسرة مستقلة رسب في روعي أن سمير ليس مهيئا ولا مستعدا لتبني أي مشروع عملي أو اجتماعي يتصف بالمسؤولية والالتزام،

ويخلق لحياته معنى حقيقيا، يحقق له دورا بارزا في الحياة العامة، أو دورا اجتماعيا يتمثل في تكوين أسرة، ثم جائني هذا الخبر المدهش من صديق مشترك بيننا، علمت من الصديق أن سمير دهب قد تزرج من امرأة مطلقة منذ شهورن ولم يعلن عن هذا الزواج، وهو يلتقي بها في بيتها دون أن يقطع صلته ببيت أبيه، ولم يكن يرى في هذه العلاقة ما يعيبها، فهي قائمة على سنة الله ورسوله، ولا ينقصها سوى الإعلان عنها، وكان للكتمان أسبابه الوجيهة من وجهة نظره. جمعه بها حب عارم، عجز عن مقاومته. امرأة تلقائية بسيطة ذات فطرة سليمة ورغبات جامحة تؤكد مشاعر الرجولة مع الالتزام بعلاقة شرعية، ولم يكن يعيبها سوى أنها من أسرة متواضعة، لا تسمع له اجتماعيا بالإعلان عن علاقته الزوجية، عندما احترت طويلا أمام هذه المغامرة العاطفية التي تبدو محسوبة بحسابات خاصة، توسلت إلى الصديق المشترك أن يشرح لي أبعاد هذه العلاقة فقال لي بفهم العارف بطبيعة سمير:

– سمير شخص مبذر ولا يملك إمكانية تدبير شقة وتكاليف زواج.. نجحت بهيجة في الاستيلاء على مشاعره.. لم يريد أن يغضب الله.. عرضت عليه زواجا شرعيا دون أن يتكبد مليما واحدا.. وافق العرض هواه.. سمير لا يملك إرادة فعل حقيقة.. كان قراره بمثابة رد فعل لإرادة "بهيجة" لم يكن يملك إرادة وأمكانيات زواج طبيعي متعارف عليه.

وبمرور الوقت لم يكن هناك مفر من تنفضه العلاقة صارحها سمير بضرورة الانفصال تجنبا لفضيحة اجتماعية، لم يكن قادرا على تطليقها دون

موافقتها ورضاها، كان يفتقد شجاعة المواجهة، بدأ يمر بمحنة طاحنة شعر بأنه يمر بمرض نفسي غامض، وإنه في حاجة إلى من يخلثه من عفريت من الجن استولى على عقله وروحه، ولاقبل له به، وجد نفسه متوحدا مع أزمته المرضية، حتى أصبح محل عطف واشفاق الجميع، لم يقتنع بتشخيص أكثر من طبيب نفسي، وبالأدوية التي كانت توصف لحالته، استجاب أخيرا لنصيحة صديق متدين، عرض عليه زيارة الحاج "حسنين" وهو شيخ طريقة معروف، يملك علاجا سحريا لطرد العفريب الذي استولى على روح سمير، ويسعى حثيثا لتدميره بعد إفساد حياته.

حضر سمير عدة جلسات في حضرة الحاج حسنين، حيث تصاعدت الأبخرة وسحب الدهان، مثلما تصاعدت الدعوات والابتهالات والتعاويذ الغامضة، اختتمت الجلسات بحداب سري يخفيه سمير تحت ملابسه الداخلية، وزجاجة سائل غير مغروف مكوناته، يرش سمير بعض قطرات منه عند عتبة البيت كل مساء، وقد تفاضى حسنين أجورا خيالية باهظة، اضطرت سمير إلى الاستدانة دون أن يفطر في كيفية سداد الدين، عجزت "بهيجة" عن فهم هذه الحالة المستعصية وكيفية التعامل معها، ساءت حالتها النفسية والصحية، زادت وطأة أمراض السكر والقلب والأعصاب، لم يمر وقت طويل حتى وافتها المنية.

ضاعفت صدمة الوفاة من معاناة سمير وزادت من عذابات بعض الوفت، وما لبث أن تحول حادث الوفاة إلى مخرج غير مقصود لإنفراج الأزمة، تحرر سمير أخيرا من وطأة ارتباط تحول مع الوفت إلى قيد أدبي

واجتماعي خانق، أصابه بحالة شلل تام، هكذا تكفل القدر بحل أزمة استعصت على الحل في غياب إرادة حرة ومشيئة قادرة.

بدا سمير يتماسك ويستعيد الكثير من توازناته، بسبب مساندة سكرتيرته الخاصة "هناء" فتاة جميلة ورشيقة تعج بالحيوية، وبذكاء اجتماعي يفوق الوصف، تصغر سمير بثلاثين عاما، ترى فيه مثلا أعلي لأب وصديق ورئيس عمل، وزاد من ارتباطها به سوء علاقتها بزوجها، الذي رفض تطليقها، والتنازل لها عن ابنتها، وارتبط بعلاقة غير شرعية مع صديقة لها، تحولت هناء مع الوقت إلى أكثر من سند وصديق وشريكة حياة يومية أصبحت مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه في مجال العمل، تملك قدرة مذهلة علي حل المشاكل والخروج من الأزمات مع رؤساء سمير ومرؤوسيه، أصبحت تحكي له عن متاعبها العائلية، بادلها حكايات بحكايات، فأخذ يحدثها عن متاعبه النفسية، ومؤمرات الجني التي تخلق له متاعب لاقبل له بها، لم يكن من السهل أن تتحول العلاقة إلى علاقة زواج، زوج هناء يرفض الطلاق ويساومها با رحمة، لاسيما بعد ما اكتشف ارتباطها العطفى، بسمير، الذي تحولت علاقتها به إلى علاقة صداقة حميمة، وحب جارف، لا يؤدي إلى زواج ولا إلى إشباع جنسي غير مشروع.

بدا سمير متقبلا لارتباطه الإنساني المحجم بهناء، لم يكن يطمع في أكثر من ذلك، في ظل عجزه عن تكوين أسرة، تكلفه ملا يحتمل من التزامات ومسئوليات، لم تشأ الظروف أن يستمر الوضع على ما هو عليه بدأ يعاني من ضغوط ملحة من أبيه وأمه وإخوته تدعوه إلى الزواج بعد أن وصل إلى سن الخمسين، مع وعد منهم بتدبير الشقة وتغطية تكاليق الزواج لم يجد

مفرا من الرضوخ لألحاح الأسرة، بعد أن اختاروا له الزوجة المناسبة أيضا، التي كانت تعمل بقسم الميزانية في اللنك الأهلي بالإسكندرية، والتي تأخر عنها قطار الزواج لظروف خاصة. هكذا تم ترتيب لقاء بينهما في نادي سبورتنج بدت "سها" متقبلة لشخصية سمير ارتاحت لبساطته ودماثة خلقة وهدوءه، العجيب الذي لا يشي بخلق متاعب أو مشاكل، ويبدو متنازلا عن أي شروط مسبقة، ولا يوحي بأنه صاحب مطالب خاصة، ولم يزعجها بأنه لا يشتري صحيفة يومية، ولا ينشغل بشؤون القتل والتعذيب اليومي الذي يملأ شاشات الفضائيا بال انقطاع، لم يزعجها أنه يفتقد الحد الأدنى من الخبرات الاجتماعية والحياتية التي تساهم في تكوين أسرة قادرة على التواصل والتفاعل مع غيرها من الأسر يبدو أنه قررت أن تقبل الفرصة السانحة الأخيرة لمشروع زواج، ويبدو أنه قد قبل نفس الفرصة.

لم تمر شهور قليلة على الزواج حتى بدات تتصاعد المتاعب والمشاكل إلى حد لم يخطر على بال، شعرت "سها" بأنه تعيش مع خيال رجل. تتحمل كل مسئوليات والتزامات البيت. لا تحظى بأي رد إيجابي على أي سؤال. لا تجد استجابة حقيقية لأي مجاملة، اكتشفت أن سمير يخفي عجزه عن مواجهة الحياة بشكل من أشكال النفاق المصطنع الذي لا يحمل مشاعر حقيقية، ولا قدرة على إنجاز شيء ما، بدا أمامها كطفل كبير، يبحث عن أم مسئولة عنه طوال الوقت، وليس عنده ما يقدمه سوى كلام منمق ومظهر أنينق وبعض التصرفت الذوقية المتحذلقة، تضاعفت الأزمات مع ظهور الابن الوحيد لهما، تحملت سها كل مطالبه ومسئولياته في حين انشغل سمير بتبديد نصف مرتبه الشهري في مجاملة أصدقائه

ومعارفه لتحقيق نوع من التواؤم الاجتماعي الكاذب، وتأكيد ذات ليس لها قوام تستند عليه. ثم حدث الانفجار أرادت سها أن تعرف حقيقة الزوج الذي تتعامل معه، إن كان هناك نوع من أنواع التعامل، أخذت تتحرى وتسأل وتجمع المعلومات عن شخص جمعتهابه عشرة عشر سنوات، لا هي علاقة زوجية اليفة، ولا هي صداقة، ولا هي زمالة عمل، ولا هي قرابة، هي أي شيء إلا أن تكون كذلك، ظلت تتقرب إلى المقربين منع في عمله، تسألهم عن طباعه وأحواله، تتعرف على أصدقائه وتتحاور معهم، تتناقش مع إخوته بصراحة وجرأة، إلى أن اكتشفت ما كان خافيا عنها، علمت أنه كان متزوجا من بهيجة، المرحومة بهيجة، ولما أنكر هذه الزيجة اطلعته على صورة من عقد زواجه بها اكتشفت أنه مرتبط بعلاقة ودودة بسكرتيرته "سها"، ولم تمنع نفسها من سوء الظن بالعلاقة عندما علمت بسوء علاقة سها بزوجها، وإنهما شبه منفصلين، هكذا لم يعد أمام هناء سوي طلب الطلاق من سمير، رفضت توسلاته وتوسلات الأقارب والأصدقاء، لم تجد مبررا واحدا لمواصلة علاقة زوجية خالية من الأمانة والصراحة والصدق والشعور بالمسئولية والالتزام بالواجبات الأسرية حتى لو كان ذلك من أجل ابنها صدقى.

لم تعد هناك سوى محاولة أخيرة لإصلاح ذات البين، طلب سمير مقابلتي على انفراد حكى لي كل أبعاد الأزمة، بصراحة تامة، اعترف بكل أخطائه، دون أن يعترف بعجزه عن ممارسة الحياة بشكل عادي وطبيعى، طلب من أن أقوم بوساطة أخيرة، تعتمد على ثقته في خبرتي وقدرتي على الإقناع فإما أن ينصلح الحال، أو يذهب كل إلى حال سبيله، لم أملك إلا

القيام بهذه الوساطة قلت لهناء إنها صاحبة حق في طلب الانفصال، ولكن ابنها صدقي هو الذي سيدفع ثمن هذه القطيعة، وإنها ستندم طوال عمرها إذا تحطمت حياة صدقي وعاني من الأمراض.

ظللت ألح على الأخطار التي ستحدق بصدقي، اقتضى من ذلك عدة جلسات وتدخلات من الأهل، أدت إلى تقبل هناء لنوع من الزمالة الأخوية بينها وبين سمير في بيت واحد، وذلك من أجل خاطر صدقي ولاشيء سوى ذلك هكذا استمرت العلاقة على هذا الوضع الشاذ.

دارت الأيام وحالة سمير تسير من سيئ إلى أسوأ أحيل إلى المعاش، لم يعد يجد ما يعمله، يذهب إلى النادي أو المقهى كل صباح، غاب الأصدقاء بحكم الظروف، لم يكن من عادة سمير أن يشتري صحيفة، أو يقرأ كتابا أو يشاهد برنامجا تليفويونيا، ليست هناك قدرة حقيقية على القيام بعمل ما ليست هناك قدرة على ملء وقت الفراغ بشيء ما، حتى لو كن صحيفة.. المعاش لا يكفي لتحمل مسئوليات أسسرة صغيرة، مكونة من زوجين وابن واحد.

كنت أنا الوحيد من معارف سمير الذي يتفهم ظروفه ويقدر أحواله، بحكم نشاطي الأدبي والصحفى، لم أشأ التخلي عنه، وأتركه لفراغ قاتل قد يؤدي به إلى مرض نفسي عضال، هو مهيأ بحكم تكوينه الضعيف إلى التعرض لمثل هضا المرض، وقد سبق له التعرض فريسة لهاجس قهري يتسلط الجن على عقله وإفساد حياته، حرص سمير على توطيد علاقته بى، وأن يكون بيننا تواصل يومى، في النادي أو المقهى أو تليفونيا، أراد أن يملأ

فـراغ حياتـه بصـحبتي وإلم أشـا أن أخذلـه أو أتخلـي عنـه، أخـذ يحكـي لي بانتظام عما جرى له في حياته كانه يجلس على كرسي اعتراف. لخص لي حياته بأنها سلسلة من الهزائم والإحباطات والكوارث والنكبات، حرص على أن يبدو حزينا متألما مكتئبا وهو يحكى، لم أكن أشعر بأنه حزين بحق بدا أنه يقوم بعمل تمثيلي مريع يرضي شيئا ما بداهله، لم يكن لديه أدنى شعور بالندم أو رغبة صادقة في تصحيح ما جرى وكان يواصل ملء زمن فارغ، لابد من تعبئة مع حركات شهيق وزفير، ومع تناول بضعة أقراص من النعناع، وصدمني ذات يوم عندما صارحني بأن المسئول عن كل ماجرة له من كـوارث ومصـائب هـو ثـورة 23 يوليـو 1952، أردت أن أعـرف مـن بشغف مذهول كيف حدث ذلك. استخف بجهلي في البداية وقلة وعيى، ثم أخذ يشرح لي ما غفلت عنه. استولت عصابة منظمة على الحكم في البلاد، وخلعت الرئيس الشرعي للبلاد الملك فاروق، وهكذا غابت الشرعية المقدسة عن البلاد إلى الأبد ولو أن الرئيس محمد نجيب استطاع أن يقضـي على هـذه العصابة لنجح في إرسـاء شرعية جديـدة كـان يمكـن تقبلها ولو على مضض، وعندما سألته عما يعرفه عن ثورة يوليو وما جرى من أحداث لتحقيق العدالة الاجتماعية وتحرير الشعوب من الاستعمار، قال لي إنه لا يشرفه أن يعرف ذلك، ومن العار أن يشغل نفسه بمثل هذه الأمور غير الشرعية، وقد ألح في نصحي بالتخلص من عملية غسيل المخ التي حدثت لي وانتهت بنكسة فظيعة وعندما حاولت أن أذكره بأن هناك إنجازات وهناك أيضا أخطاء، رمقني بامتعاض وقال لي بلهجة قاطعة: أنت ضحية مثل كل ضحايا الشرعية المفقودة.

أدركت في النهاية أن سمير قد دخل في حالة غيبوبة دائمة، لم يعد له منها مخرج، غال العقل والمنطق، غاب معني أي شيء، يمكن أن يحلق للخياة معنى ما .لم يعد هناك سوى قلب يدق، رئة تتنفس ومعدة تهضم القليل من الطعام وساعات قليلة يختلط فيها النوم بالأرق. وتبرير غامض بأن ثورة يوليو 52 هي المسئولة عن كل ما جرى له وأن غيبوبة بشرية من فعل الجن والشياطين قد قطعت صلته تماما بالناس والأحياء والحياة.

فرجينا كارلي

عرفتها مدرسة لي بالمركز الثقافي الأمريكي بالإسكندرية،
نقلني مدير المركز إلى فصلها بعد أن تعثرت في تعلم
الإنجليزية، باللهجة الأمريكية في فصل آخر ومع مدرسة
أخرى، جذبتني ملامحها السكسونية الجميلة، العيون الزرقاء
والشعر الأصفر، والشرة الناصعة البياض،

رشاقة القوام والصوت الهادىء الذي يقترب من الوشوشة، الحروف واضحة تشبه الدندنة، الكلمات لها جرس موسيقي يشيع الطمأنينة في النفس هناك علاقة سحرية بين أصبع "الطبشور" وأصابع كفها، تحركاته الرشيقة تخفي طياتها مشروع راقصة باليه، انجذبت إليها بلا تردد أو خوف من المجهول، رأيت فيها فتاة أحلامي التي كنت أبحث عنها طوال عمرى، أغلب الظن أنها لا تزيد عن الخامسة والثلاثين من عمرها، وأنا في الخامسة والخمسين لا أريدها أن تغيب عن نظري أعجل موعد بدء الدرس.

كيف تقوم بيننا علاقة؟ لا تكفيني علاقة التلميذ بمدرسته لا أقبل جبا أفلاطونيا يعشش في الخيال، أريد أن ألمس أصابعها أربت على كتفها، أطبطب على ظهرها، أحتضنها وأنا أقود سيارتي. ألمس شفتيها بسبابتي على الأقل.

لم يبق لي سوى أيام على نهاية الدورة الدراسية بالمركز الثقافي الأمريكي سأسافر بعد شهر إلى أمريكا مع وفد من الأدباؤ المصريين، بناء

على دعوة من وكالة الإعلام الأمريكية، لتوطيد العلاقات الثقافية بين البلدين، بعد أن تبادلت مصر السفراء مع إسرائيل. وحل موعد الامتحان امتحان نهاية الدورة، حرصت علي الجلوس خلق المنضدة الملاصقة لمكتبها في صدر القاعة، وزع "فرجينيا" أوراق الأسئلة، أخذت أرمقها من وقت لآخر وأنا أجيب على الأسئلة، استجمعت شجاعتي وقلت لها قبيل انتهاء وقت الامتحان: أنا أحبك.. أريد أن نلتقي لأعبر لك عن مشاعري، قالت دون أدني تردد: "لا مشكلة"، حددت لها موعدا في محل "أتتينوس" بمحطة الرمل، التقينا في مساء شتوي بعد ربيع قادم، هربنا من بعضنا لحظات فالقينا البصر على صفحة الموج الهادر في حوض الميناء الشرقى، لست من الذين يدهلون في مباشرة، أخرجت من جيبي قصيدة لشاعر أمريكي معاصر، قدمتها لها.

رجوتها أن تترجمها لى، تحمست للطلب، أخذت تقرأها عدة مرات بدأت تشرح لي ما تنطوي عليها القصيدة من دلالات من خلال التشبيهات والاستعارات والكنايا، طلبت مني أن أحضر معي في المرة القادمة بعض القصائد العربية، وأشرحها لها، قالت لي إنها تحب مصر بجنون وتتمنى أن تتعرف على أشعار وقصص وروايات الأدباء المصريين.

حانت لحظة المواجهة، لم يعد هناك وقت للخرج والمماطلة لفتتني بنظرة منسابة تغريني بترجمة مشاعري إلى كلمات، قلت لها بإنجليزيتي المتلجلجة.

— هناك ما يجمعنا بالتأكيد.. ماذا سنفعل مع بعضنا؟

قالت بصراحة وبساطة مدهشة: نفعل ما نريد أن نفعله.

– أليست هناك حدود لما نفعله؟

– نحن الذين نضع الحدود، ونحن الذين نزيلها.

– هناك فارق في السن، يقترب من العشرين عاما.

– المشاعر الطيبة تزيل كل الفوارق.

قلت لها وأنا مذهول من بساطة الحوار: "بهذه البساطة؟!

– هل تريد علاقة حرة أم علاقة زواج؟

– لا أقبل بأقل من علاقة زواج.. الحب يرتبط عندي بالالتزام.

قالت ببساطة ووضوح غريبين على طبيعتي وطريقة تفكيري.

– عندي إذن مشكلة بسيطة.. أحتاج بضعة أسابيع لحلها..

– بضعة أسابيع؟

– أنا متزوجة من طبيب مصري هنا في مصر.. حدث بيننا فتور عاطفي أدى إلى خلافات لم يعد لها حل.. قررنا الانفصال بالتراضي وعن طيب خاطر.. هو شرقي غيور.. يتهمني بأنني لا أراعي مشاعره وأنا أتعامل مع الرجال.. الحرية في نظري لا تتجزأ.. لا أنكر أنه يتمتع بروح رياضية عالية.. منحني الحق في اختيار توقيت الانفصال.. ظهرت أنت في حياتي.. وصلتني مشاعرك الطيبة نحوي.. مشاعر طفولية جميلة، رغم بعض الشعرات البيض في رأسك.. هل لديك تعليق؟

لم تكن عندي أفكار مرتبة أقولها بوضوح.. قلت بعفوية وتلقائية

– هنـاك انقـلاب صـاخب يحـدث في داخلـي.. أحتـاج لمراجعـة كثـير مـن الأفكار هناك شيء ما يجذبني إليك.. حديثك جعلني أكثر انجذابا إليك.. أود لـو أمتلـك الشـجاعة لأقبلـك أمـام كـل هـؤلاء الـزبائن والـرواد.. هـل توافقين؟

– المشكلة مشكلتك.. ليست مشكلتي.

– مـا الـذي جـذبك إلي.. أريـد أن أصـدق أن هنـاك شـيئا مـا يجـذبك إلي. شملتني بنظـرة حانـة، تمتـزج فيهـا الأنوثـة بالأمومـة، نظـرة تتسـلل إلى القيـود الخفية في داخلي، القيود التي لا تعطل انتفاضة حرية محلقة في خيالي، قالت كأنها تقرأ كتابا مفتوحا.

–كنت أتابعك منذ التحقت بفصلي الدراسي بالمركز.. رأيت فيك شكلا مختلفا عن غيرك... علمت أنك كاتب وأديب.. لم تخف مشاعرك نحوي.. غلبت مشاعرك الإنسانية على خلافات الجنس واللون والدين والثقافة.. الإنسـان في داخلـك يتجـاوز القيـود الموروثـة او المكتسـبة.. لا تنسـى أنـني مدرسة لغة، واللغة ترتبط بالأشعار والقصص، بالبعد الإنساني في أعماق الأديب المبدع.

لم أشأ أن أقول لها إن حلم الحرية والتحرير يختلط في داخلي بوطأة القيود والانتماءات والتكيف مع الواقع، لم أرد أن أفسد انطلاق مشاعر بال قيـود. التقينـا بعـد ذلـك عـدة مـرات في تريانـون، كاليتيـا، مونسـنيور، إيليت، باسترودس.. محلات إيطالية ويونانية ذات صبغة تاريخية. أمسكت بكفها عدة مرات، قبلتها ذات مساء في محل "سانت لوتسيا" كانت تحب

المحلات ذات الصبغة الأوربية التي تنفرد بها إسكندرية اليونان والرومان، لم أشأ أن تتعد العلاقة حدود الصحبة الرومانسية والرعشات الوجدانية.

حان موعد رحلتي الثقافية إلى أمريكا مع زملائي كانت حدثا فريدا في حياتي لم يسبق له مثيل. ابن القرية الذي أصبح سكندريا "كزرموبوليتانيا" تطأ قدماه أرض واشنطن لول مرة بكل ما تحمله أرض هذه المدينة من ذكرى نشوء وارتقاء حضارة العالم الجديد، حملت معي قيم القرية وقيم الحضارة الأوربية، لأتعامل بها مع قيم الحضارة الأمريكية البراجمابتية..من واشنطن إلى نيويورك غلي مونتانا إلى لوس أنجيلوي.. زرنا ولايات عشر تعاملت مع المواطن الأمريكي الحر البسيط، الذي لا يعرف شيئا عن جغرافيا وتاريخ العالم القديم، لا ينشغل بالصراعات الدائرة في آسيا وأفريقيا، ولا يقلق من الغرباء، فهو مجتمع غرباء انصهروا في مجتمع واحد، ذابت فه فروق الأصل والجنس واللون والدين تجمعهم قيم الحرية والرخاء تحت راية الدستور والقوانين. لا ينشغلون بالسياسة الخارجية إلا إذا قتل جندي أمريكي في كوريا أو فيتنام، أو إذا حدث التضخم والغلاء، أحببت الإنسان الأمريكي رغم كل تحفظاتي على السياسة الخارجية الأمريكية.

خان موعدزيارة الوفد لولاية "ألاباما" في أقصى الجنوب الأمريكي زرنا قرية صغيرة، كل سكناها من "الهنود الحمر".. سكان أمريكا الأصليون، الذين أبيدوا، ولم يبق منهم سوى بقايا بشر وحضارة زائلة، تقطن بعض القرى والنجوع في صحروات واسعة، يعيشون حياة بدائية

متقسفة، قال لنا المرافق إنهم يرفضون الاندماج في المجتمع الجديد، ويعيشون على أمل استعادة حضارتهم الزائلة.. وعندما سألت المرافق هل يعبرون عن حلمهم هذا صراحة، دعانا في اليوم التالي لحضور تظاهرة محدودة، تضم بعط الهنود الحمر، يدعون لاستعادة هويتهم وحضارتهم وثرواتهم المنهوبة، كان هذا هو أقصى ما يستطيعون فعله لاستعادة هوية ضائعة..حق التظاهر وليس حق استعادة الحق الضائع، وأخذت أتأمل سكان القرية، الذين تحولو إلى مزار سياحي يشير إلى الماضي ويدخل البهجة وروح الإثارة علي قلوب السياح.. أفران بدائية لصنع رغيف خبز أثري له مذاق خاص.. بيوت قديمة أشبه بالجحور والأقبية.. ملابس رثة متهدلة أقرب إلى جلابيب رثة.. حزيني مكتئبة.. أطفال هائمون على وجوهم.. أغنام وأبقار ترعى في أرض جدباء.. لا شيء مضيء في حياتهم سوى حلم مقبور في قلوبهم يتعذر تحقيقه بل يستحيل. بدت صورة قاتمة بددت بهجتي بالرحلة، تذكرت ما جرى للفلسطينيين من ذبح وقتل وإبادة على يد المستوطنين اليهود من أجل إقامة دولة إسرائيل، قلت في نفسي ما أشبه اليوم بالبارحة.. ربما أن هذا التاريخ الواحد هو ما يجمع بين إسرائيل وأمريكا.. ربما ما يجمعهم الآن هو انتظار أسطورة المسيح الصهيوني الذي يحقق العدل على الأرض لمدة ألق عام.

كان لزيارة مدينة لوس أنجيلوس بولاية كاليفورنيا أثر كبير وعميق في نفسي كانت الوجه الآخر لما رأيته في ولاية ألاباما، التقينا بأساتذة جامعات ورجال أعمال، صحفيين وإعلاميين ومفكرين، بدت المدينة معقلا هاما من معاقل الفكر والعلم والفن.. بدت نموذجا حيا لثقافة وحضارة العالم الجديد

متمثلا في الولايات المتحدة الأمريكية، وحانت فرصة مواتية تمنيته ومع ذلك لم أتوقعها، تم ترتيب اجتماع لنا مع مستر ديفيد. علمنا أنه أديب أمريكي معاصر، يهتم بفن الرواية، يهودي الديانة يجمع بين معارف التراث الشرقي ومعارف العصر.

تحدثنا طويلا في مقومات فن الرواية والقصة المعاصرة، وعلاقتها بفن القص القديم، دعانا لحفل عشاؤ في بيته، كان قصرا فاخرا فوق ربوة عالية تطل علي غابات كثيفة، واصلنا حديثنا في الأدب وعن أحوال مصر والوطن العربى، ثم حانت الفرصة لأن أنفرد به.

صارحني بأن عندي ما أريد قوله وأتحرج من البوح به. كان هذا صحيحا. أعجبني ذكاؤه، سألته عما إذا كان يجد حرجا في الحديث عن "اللوبي اليهودى" في أمريكا.

قال إنه يشعر بشغف مثير في الحديث عن هذا الموضوع مع شرقيين، عاد يقول إن الشرقيين لايتعاملون مع الحقائق وطبيعة المصالح، وإنما يحكمون العواطف والانتماءات الجامدة، وجدتها فرثة سانحة لأتعرف على اللوبي اليهودي في أمريكا وكيف وصل إلى ما وصل إليه. قال لي بوضوح زائد.

يهود أوروبا المضطهدون كانوا أول من هاجروا مع المضطهدين الأوروبيين إلى أمريكا.. اعتبروا أمريكا أرض الميعاد المؤقتة التي تمهد الطريق إلى أرض الميعاد في فلسطين.. ساهمنا في صنع العالم الجديد عبر مائتي

سنة.. وعينا بحقائق القوة في هذا العصر.. انشغلنا بقضايا العلم والصنناعة والتكنولوجيا والإعلام وكان لنا منها النصيب الأوفر.

المضطهدون الأوروبيون الذين هاجروا إلى أمريكا، أبادوا شعبا ودمروا حضارته أيا كانت، واستوطنو أرضه.. لم تكن الأرض الأمريكية أرضا بلا شعب.

– لا أنكر حدوث اقتتال طويل الأمد بين السكان الأصليين والمهاجرين.. انحسم الصراع لصالح الأقوى.

– أنت هكذا تنحاز لحق الأقوى، ولا تنحاز لحق الشعوب وحقوق الإنسان.. أنا أذكرك بمبادئ حقوق الإنسان.

استغرق ديفيد في الضحك، وقال بظرف وممازحة

– هل تمتد أصولك العريقة إلى أصول "الهنود الحمر"؟!

تقبلت القفشة، عدت أقول له بجدية.

–كررتم تجربة الاستيطان بشكل مأساوي معاكي، عندما اصدتم الأفارقة بالشباك، لتنزعوهم من أوطانهم، تحولوهم لأي عبيد، يزرعون لكم الأرض التي خلت من سكانها.

– أنا أقدر أصولك الأفريقية، ولكن ما الذي يدعوك إلى استرجاع الماضى، وما الفائدة من ذلك؟ لماذا لا تتعامل مع الواقع بموازين القوة والمصلحة؟ ما حاجتك للماضي؟

– لأن تجربة الاستيطان تكررت في الوطن العربي.. الميليشيات اليهودية أبادت الشعب الفلسطيني وطردته من أرضه. لم تكن فلسطين أرضا بلا شعب كما يدعي الصهاينة... اللوبي اليهودي في أمريكا دعم إسرائيل

وساندها بلا تحفظات.. المسيحية الصهيونية في أمريكا الآن تشترط إعادة بناء الهيك على أنقاض المسجد الأقصى، وعودة يهود العالم إلى فلسطين إيذانا بعودة المسيح المنتظر، ليحقق عدالة السماء لمدة عام.. أريد أن أتحدث معك الآن بلغة المصلحة، كما تحب وترضى.. لكم مصالح كثيرة مع الوطن العربي وأهمها البترول.. ألا تخشون من تهديد مصالحكم مع دول الوطن العربى؟

بدا عليه الارتياح وهو يتهيأ للحديث:

– أنا سعيد لأنك بأت تتحدث عن لغة المصالح.. اسمع يا صديقي العربى.. فوجئنا في عام **1948** بأن إسرائيل انتصرت على خمس دول عربية.. أثبتت وجودها وقدرتها على تأمين هذا الوجو.. من الطبيعي أن تقف أمريكا بجوار من أثبت وجوده وقدرته علي القاء. استمر الصراع العربي الإسرائيلى، وعادت إسرائيل تؤكد قدرتها على البقاء في عام **1967**.. انتصرت على ثلاث دول عربية انتصارا ساحقا.. هل تريد منا أن نتخلى عن المنتصر؟.. موازين القوة والمصالح لاتقبل بهذا المنطق.. ثم إن مصالحنا مع الدول العربية لم تتعرض لأي خطر أو مجازفة.. حرب أكتوبر **1973** ادت إلى تصالح مصر والأردن مع إسرائيل، والقية تأتى.. أين المشكلة؟.. دعنا نتحدث بلغة الواقع بعيد عن أوجاع الماضي.

لم أجد داعيا للحديث عن حق الشعب الفلسطيني في العودة إلى أرضه، مستر "ديفيد" يتحدث عن موازين القوة عند إسرائيل، وموازين الضعف عند العرب. هذا منطق المشروع الإمبراطوري الأمريكي في كل بؤر

الصراع في العالم ، لم يعد المطلوب هو التزام أمريكا بمبادئ "ولسون"، وإنما بتغيير موازين القوة لصالح الغرب، وهذا هو التحدي القائم الآن.

لا أنكر بأنني استمتعت كثيرا برحلتي السياحية والثقافية إلى أمريكا.. زرنا استديوهات "هوليود"، توقفنا طويلا أمام تمثال الحرية في نيويورك، وما يرمز إليه في الماضي والحاضر، ناطحات السحاب في شيكاجو وسان فرانسسكو وغيرهما تطاول السماء، المتحف الدوار يدير الرؤوس بما يقدمه من منجزات تكنولوجيا العصر، المكتبات تحوي كل تراث العالم من الكتب.

وجدت بعض كتبي في مكتبة الكونجرس، المزارع الحديثة وأساليب الزراعة المتكورة، الغابات الكثيفة التي تكشف عن سخاء الكبيعة وكرمها والمتاحف الحديثة التي تعج بكم هائل من الآثار الفرعونية القديمة، والآثار الهندية والصينية وغيرها، وكأنها معرض عالمي لمنجزات العالم القديم.. البوتيكات والسوبر ماركت والمولات التي تشكل معرضا عالميا للحاجات الاستتهلاكية للعالم الجديد دور السينما والمسارح والفنادق الشاهقة والكافتيريات في أبهى صورها.

عدت من رحلتي لأمريكا بعد أربعين يوما، اشتقت كثيرا لرؤية "فرجينا".

ذهبت إلى المركز الثقافي كانت تعطي درسا في قاعة علوية وقفت عند شباك القاعة حييتها بإضارة ملهوفة من يدى، خردت من القاعة في

لحظة احتضنتني بلا حرج.. بادلتها حضنا بحضن قبلتني في خدى، كدت أقبها في فمها، تواعدنا على عشاء في فندق "الشانزليزية" على البحر. قلنا كلاما كثيرا. تحسنت إنجليزيتي بعد الرحلة، انفكت عقدة لسانى، داعبتني بقولها: "أصبحت أمريكيا بعد الرحلة مثلما أصبحت مصرية بعد أن عملت بالمركز"، حكيت لها عن أجمل ذكرياتي في عشر ولايات أمريكية. قلت لها إن نيويورك وواشنطن ولوس انجيلوس أكثر إبهارا من باريس ولندن قلت لها إن أمريكا عالم جديد بحق، لم أشأ أن أحدثها عن بؤس سكان ألاباما، وعن حديث مستر ديفيد عن فلسفة القوة. رأيت أن أؤجل ذلك الحديث إلى وقت آخر.

انتهزت لحظة مناسبة وقالت لي بفرحة غامرة: "عندي لك مفاجأة سارة.. تم طلاقي من زوجي "لؤى".. أصبحت الآن حرة، فرحت بالخبر أكثر من فرحتها به، لم يمنعني فرحي من سؤالها بفضول. عزيزتى: هل كنت متاكدة أننا سنتزوج بعد طلاقك؟ قالت بتلقائية: "لم يكن انفصالي مرتطا باحتمال زواجنا.. اخترت ما أردت بحرية كاملة، بصرف النظر عن العواقب".

فرجينيا تلقني درسا آخر من دروي الحرية..مدرسة لغة ومدرس حرية، قلت لها بسعادة: عندي لك أيضا خبر سار.. قررت أن أتزوجك، في أقرب وقت قالت بدلال، وهي تمسك كفي:

– ولكنك لم تأخذ رأيي.

– تصورت أنك موافقة.

– تصورك في محله.. ومع ذلك كان يجب أن تستشيرني.. أنا محظوظة.. محظوظة يا طفلي الكبير.

صمتت لحظات وتلبد وجهها بجدية مفاجئة رمقتني بحيرة. بدا أنها تريد أن تقول شيئا، وتحاول استقراء وقع ما ستقول، قالت بهدوء وترقب رد الفعل.

– خناك ما يجب أن تعرفه.. أنا يهودية... يهودية الديانة لا أكثر ولا أقل.

وقع الخبر وقع الصاعقة، لم أتصور ذلك، ولم يخطر في على بال، لم أستطع أن أخفي دهشتي وقلقى، جحظت عيناي على الرغم مني وشعرت أنني أمام فرجينيا أخرى غير التي عرفتها لم يسعفني عقلي بأي تعليق، ارتعشت يدي وأنا أمسك بكوب الليمون، عدت إلى العاشرة من عمرى، عندما كانت هناك أسرة يهودية تسكن في الشقة المقابلة لشقتنا في حي "مخرم بك"، كن أحب مدام "ليلى" مثلما أحب أمي. أحرص على تحية زوجها "عمير" كلما التقيت به على سلم العمارة، مدام ليلى تهدينا من آن لآخر علبة حلويات من صنع يديها أمي ترد على الهدية بصينية "مهلبية" أو طبف "خشاق" ومع ذلك فقد وقع على خبر يهودية "فرجينيا" وقع الصاعقة. قطعت فرجينيا ذلك الصمت المريب:

– من حقك أن تتراجع عن قرار الزواج.. هذا لا يمنع أن نظل أصدقاء. لم أشأ إلا أن أكون واضحا وصريحا، العلاقة لا تحتمل مناورة أونفاق قلت بصراحة.

– لا أستطيع أن أحدد بوضوح ما يدور في رأسي الآن.. أحتاج إلى مراجعة أفكاري.

– من حقك أن تعيد التفكير.. أنا أقدر ما يعتمل في عقلك الشرقي.

– أشكرك على سماحتك.. على تقديرك للظروف.

تذكر فقط أن "ليلى مراد" كانت يهودية وتزوجت من مسلم.. "عمر الشريف" كان يهوديا وتزوج من مسلمة.. أنا لا أحرجك ، وإنما أساعدك على التفكير. قلت على سبيل التفكير بصوت عال.

– عمر الشريف أعلن إسلامه قبل أن يتزوج من فاتن حمامة.

ردت علي ببساطة محيرة ومدهشة

– أنا علي استعداد لأن أعلن إسلامي إذا كان هذا يريحك مما يمكن أن تعانيه.

صاعقة أخرى انقضت عليّ.. كيف تفكر بهذه البساطة، حتى وهي تتعامل مع المعتقدات قلت بتحفظ:

– هذه تضحية منك تستحق الاحترام والتقدير.. ومع ذلك احتاج لمراجعة ما يدور في رأسي.

– من حقك أن تراجع نفسك.. تذكر أنني لست مستعدة للتخلي عن صداقتك في كل الأحوال.

ودعتها وأنا في خال غير الحال.. لم يبد عليها أي شعور بالإحباط أو خيبة الأمل، اعترفت لها في نهاية اللقاء لأنني مندهش من جرأتها في التعامل مع المعتقدات، قالت ببساطة أثارت غيظي هذه المرة: "الحرية

الحقيقية تحتاج إلى تضحيات.. الحر الحقيقي يعيد خلق نفسه عدة مرات يراجع الماضي من أجل صنع المستقبل".

عدت إلى بيتي وأنا أقاوم صراعا لم ينحسم بعد شربت العديد من فناجين القهوة وأكواب الشاي حتى أصابني صداع حاد، لم أذق النوم طوال الليل، أخوض امتحانا دراميا صعبا. هل انتصر لإنسانيتي أم لموروث أفكارة؟ استطعت في الصباح أن أستجلي مكنون مشاعره، أمسكت بمفتاح العقدة طلبت لقاؤها، دعوتها على عشاء في "سانت لوتشيا"، بدوت أكثر هدوءا وتركيزا قالت بمرح: أنا سعيدة باللقاء، بصرف النظر عما يدور في رأسك".

رجوتها أن تستمع إلى بصبر وأنا أبوح لها بحقيقة مشاعري.
– اسمعي يا "فرجينيا".. حكيت لك أني كنت ضابطا سابقا بالقوات المسلحة، قبل أن أتحول إلى النشاط الأدبي والصحفي.. خضت أربعة حروب مع الجيش الإسرائيلى، حرب 56، وحرت67، وحرب الاستنزاف، وحرب أكتوبر 73.. نجوت بأجوبة من الموت.. شربت بولي وأكلت الحشائش وأنا منسحب من سيناء عام 56.. شربت مياه البحر وأنا غاطس تحت مائه هربا من الطائرات الإسرائيلية، في حرب 67.. عانيت من القصف الحوي لموقعي في حرب الاستنزاف.. أصبت في ذراعي وأنا أهاجم دشمة فوق خط بارليف في حرب 73.. شاهدت الكثير من القتلى والجرحي في رفح والعريش وأبو عجيلة.. دفنت مع زملائي الكثير من الجثث في قلب الصحراء.. لم أستطع معاونة الجرحى على الانسحاب..

مازالت تؤرقني مشاهد الموت التي رأيتها بعيني رأسي.. وقعت مصر اتفاق سلام مع إسرائيل في عام 79، ومع ذلك لم يفز الفلسطينيون بوطن قومي على ثلث أراضيهم.. كيف أنسى هذه الأحداث الأليمة.

تأثرت "فرجينيا" بما سمعت بدت مشفقة عليّ من هول ما لاقيت، صمتت طويلا مسحت شعر رأسي بكفها على سبيل المواساة.. أدارت راسها لتخفي دمعة فرت على الرغم منها. غرقت في شجون الماضى، كسرت مهابة الصمت القائم وقالت:

– غابت عنك حقيقة هامة.. أنا يهودية بالدين.. لست صهيونية.. هل تستوعب الفرق؟

– لم تتولد عندي الرغبة في التفريق.. الآلام تولد الغضب العارم. كل يهود العالم يحلمون بأسطورة أرض الميعاد.. أسطورة دينية تخالف الواقع فلسطين كات وطنا لأجناس كثيرة.. كانت وطنا للكنعانيين والفلسطينين والفينيقيين، واليهود.. كانت وطنا للجميع.

– أنا لا أعرف شيئا عن أرض الميعاد التي تتحدث عنها.. أتصور أن إسرائيل ستخلق متاعب كثيرة ليهود العالم.. هل تصدقني إذا قلت لك إني أتعاطف مع حقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة. أنت محسوبة على اللوبي اليهودي في أمريكا..هذا اللوبي اليهودي يتحالف مع إسرائيل دون قيد أوشرط.

– اللوبي اليهودي في أمريكا يدافع عن مصالحه في العالم ومصالح أمريكا.. ألم تسمع عن مفكرين وسياسيين يهود يهاجمون إسرائسل ومساندة أمريكا لإسرائسل؟.. ألم تسمع عن اليهودي الأمريكي "نعوم تشومسكى" الذي يهاجم العولمة والإرهاب والحضارة الغربية التي أعملت السلب والنهب للعالم طوال 500 عام؟

هناك مفكرون يهود كثيرون يدينون قيام إسرائيل وتشريد الشعب الفلسطيني الذي يعيش الآن في الشتات.

لم أكن أصور أن فرجينيا كارلي تملك هذا القدر من الفهم والوعي، وتتحاور في قضايا حساسة بوعي مستنير، نجحت إلى حد ما في خلخلة ذلك الحاجز الذي عطل تواصلي العاطفي معها، ومع ذلك قلت لها: أحتاج إلى مهلة: كي أصدق أنك لست يهودية صهيونية. قالت بثقة يمتزج فيها الحب بالتعقل.

– فلنكن أحرارا حقيقيين.. لنكن أصدقاء حتي يتحقق حلم دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية.

اصطحبتها في سيارتي ونحن نقطع كورنيش البحر ذهابا وإيابا، لانتوقف عن حديث مسترسل ودود، أمسح رزاز أمواج البحر من فوق الزجاج الأمامي لليسارة، أقللت من سرعة السيارة وأنا أقترب من محل "الصعيدي" للمرطبات، المجاور لجامع "المرسي أبوالعباس"، سألتها إن كانت تأحذ كأسا من الجيلاتي، أم طبقا من البليلة. طلبت طبق البليلة، وهي تسألني عنا أعرفه عن هذا الجامع، أخذت أحكي لها عن ذلك الشيخ

القرع أبوالعباس الذي أمضي رحلة شاقة عبر الممالك والبحار، ليصل إلى الإسكندرية ويقيم فيها، ويدعو الناس إلى طريق التقوى والصلاح، حتى وافقه المنية، ودفن هنا في هذا المكان، بدت سعيدة وهي تستمتع بطعن البليلة، بدت مشغولة الذهن وهي تسألني فجأة:

– هل كتبت شيئا عن تجارب الحرب التي خضتها؟

– كتبت ثلاث روايات عن الحروب الثلاثة التي شاركت فيها.

– هل ترجمت إلى لغات أخرى؟

– لم أجد الناشر الذي يترجمها.

– يمكنني أن أوصي بترجمتها عن طريق قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

– لاأظن أن الجامعة الأمريكية تترجم أعمالا تدين إسرائيل.

– حرية التعبير عندنا مكفولة بحكم الدستور.. دعنا نقدم الوجه الآخر للرأي العام الأمريكى.

– أنا أقبل هذا التحدي.. أراهن أنك ستخسرين هذه المعركة.. سأفوز بدليل إدانة جديد.

– لتكن "ناعوم تشومسكى" آخر.. تهاجم صفوف الإرهاب بما فيها إرهاب الدول.. امتحان

حرية لا مفر منه. أدرت موتور السيارة وأنا أقول لها بارتياح.

– دعينا نتمسك بصداقتنا.. نتمسك بزواج الأفكار.

– ربما يكون في ذلك مقدمة مقبولة لزواج الحب.

محمود السيد

كان أحد أفراد دفعتي في الكلية الحربية.. لم أتعرف عليه إلا بعد أن تخرجنا من الكلية، وأصبح زميلي في الوحدة التي التحقنا بها، كان له وجه صارم، دون عبوس أو تكشير.. تستطيع أن تثق فيه وتطمئن إليه ومع ذلك لم يكن قريبا إلى نفوس المحيطين به، ملامحه توحي بأنه يملك وعيا حادا بكل ما يجري حوله، ويستطيع أن يفهم كل المحيطين به على حقيقتهم، بصرف النظر عن الصور التي يحبون أن يظهروا عليها، يبدو مهيب الطلعة، شامخ البنيان..

وجه أبيض مستدير.. شعر أسود قصير.. قامة فارعة.. صدر عريض.. مفتول العضلات، له حضور "كاريزمى" يصعب اقتحامه، ولا يسهل الاقتراب منه دونما حذر ودون الانضباط في السلوك والكلمات ويبدو أكبر من سنه الحقيقي، هو في العشرين ويتصرف كما لو كان في الخمسين من عمره.

برغم ميله للعزلة وعدم المبادرة في خلق وتنمية صداقات، شعرت بأنه قريب من أكثر من غيره من الزملاء، في داخله شيء ما لايبوح به وأريد أن أعرفه. فضول ما يدفعني لمعرفة كيف يفكر وفيم يفكر، ارتاح لمبادراتي في الاقتراب منه، ودون أن يتخلى عن تحفظاته التي هي جزء ذكاء المتلقي، حيرني حماسه لتقبل صداقتي له دون غيري، وحرصه على التمسك

بها، تولدت بيننا مساحة كبيرة من العشم، انتهزتها فرصة لسؤاله عن رأيه في شخصي.. قال ببساطة واعية: "ملامحك توحي بسذاجة تصل إلى حد العبط.. أخمن أن فضولي مهم.. تريد أن تعرف حقائق ما سسجرة حولك، بعيدا عن الدوافع الشخصية.. لست الشخص الساذج الذي أراه أمامي الآن.. أتوقع أن تدهشنا في المستقبل بمفاجئات كثيرة.

اختفت الوحدة التي التحقنا بها بدفعنا "ستة ملازم ثان" احتفاء خاصا، باعتبارنا دفعة الثورة "الدفعة التي التحقت بالكلية الحربية بعد الثورة بشهرين"، نظمت لنا دورة تدريب قصيرة لتعريفنا بالمهام المكلت إلينا، تحت إشراف البكباشي عز الدين وهبة، الذي بدا لنا ودودا ديمقراطيا، متجاوزا صرامة وحزم التقاليد العسكري، ربما كان يحتفل بالثورة من خلال احتفاله بدقعة الثورة، انتهت الدورة بحفل إفكار، يرأسه البكباشي عز الدين وهبة الذي أخذ يسألنا، بعد نهاية الأفكار عما استفدناه من هذه الدورة، فوجئنا جميعا بسؤاله الأخيرن ذي الطابع الديمقراطي عندما قال لنا: "أريد أن أعرف رأيكم في طريقة إدارتي لهذه الدورة، ومدى تقبلك لمعاملتي لكم".

أربكنا السؤال، لم نتعود في الكلية أن يسألنا قائدنا، بل يأخذ رأينا في طبيعة أدائه لمهمته، أجبنا إجابات حذرة، لا تتعدى حدود اللياقة والانضباط، إلى أن حل دور محمود السيد، الذي قال بثقة وهدوء: حضرتك كنت ودودا معنا بشكل لم نتوقعه من قائد يتعامل مع مرءوسيه

الصغار المبتدئين.. لم أفهم سر هذا الود.. سؤال يحيرني، ولا أجد عندي إجابة واضحة عليه.

اتصف التعليق بالجرأة، وبصراحة لم تكن مطلوبة، رد عليه البكباشي عز الدين (لم تكن الرتب قد تم تعريبها بعد) بابتسامة خالية من أي انفعال.. انتهى حفل الإفطار، وانصرف كل منا إلى وحدته الفرعية، التيت في المساء بمحمود السيد في كازينو الشاطبي "كانت وحدتنا آنذاك الوقت في مدينة الإسكندرية"، قلت له بال تحفظ: كنت صريحا أكثر من اللازم، وأنت تعبر عن رأيك في البكباشى.. رأيك أثار شبهة ما، ربما سببت له بعض الحرج"، رد على تعليقي بسؤال:

– هل قلت أنت رأيك فيه بصراحة؟

– التقاليد العسكرية لاتحتمل أن يقول مرؤوس صغير رأيه في قائد وحدته.. لم أنخدع في تبسطة معنا.

— وما هو رأيك فيه بصراحة..تخل عن التظاهر بالسذاجة، وقل لي الآن ما تحرجت عن قوله.

— الشجاعة لها ضوابط وحسابات يا محمود.

— لم أتطوع بقول رأيي.. هو طلب الرأي.. الشجاعة تقتضي الصراحة.. لاتحتمل ظاهرا وباطنا.. الشجاعة تقتضي من المقاتل المصري أن يضحي بحياته وهو يشتبط مع العدو الإسرائيلى.. هل تبخل على مقاتل أن يقول رأيه بصراحة في جلسة إفطار؟

– هل تعطيني درسا في الشجاعة؟

– ليكن كذلك.. قل لي الآن ما لم تقله، وتمنيت أن تقوله.. أنا أمتحن شجاعتك.

– كان انطباعي عن شخصية "البكباشي" خياليا، يختلط فيه الواقع بالتاريخ.

– لا أريد مقدمات.. قل لي رأيك.. تعود أن تعبر عما في صدرك، حتى تفوز باحترام الناس.

ترددت قليلا، ثم قررت أن أقول رأيي بشجاعة، حتى لو كان يتصف بالسذاجة والعبط.

– لم أقف لحظة عن تأمل عينيي "البكباشي" الزرقاوتين، وبشرته الناصعة البياض، وحاجبيه الكثيفي الشعر، وشخصيته المتعالية رغم تظاهره بالتواضع، وجسمه الممتلئ، كرشه البارز.. تصورت أنه ينتمي لأصول تركية عثمانية.. الثورة طردت الملك وأنهت حكم أسرة محمد علي التركية.. هو يعرف أننا دفعة الثورة، ننتمي لأصول شعبية، لم يدخل أحدنا الكلية الحربية بكشف أطيان أو كارت من لواء بالجيش.. "البكباشي" شديد الذكاء.. أراد أن يحتفل بالثورة الوطنية، من خلال اختفائه بطليعة ضباطها الذين ينحدرون من أصول شعبية.. استشعر بوعي حاد نهاية النفوذ التركي بعد طرد آخر سلالة أسرة محمد على. تحكم محمود في دهشته وانبهاره، ثم قال بظرف:

– أنت تذكرني بكتاب القصص والروايات.. ربما يكون لك شأن في هذا المجال.

لم أنسى هذا الحديث طوال حياتى، تلقيت درسا في الشجاعة من محمود تلك الشجاعة التي كلفته حياته فيما بعد. أبلغني بنبوءة، لم أتصور وقتها أن تحقق في يوم من الأيام كان ماثلا أمامي دائما وأنا أكتب قصصي ورواياتي ومسرحياتى.

تواصلت صحبتي لمحمود، لم نعد نفرق إلا في أوقات العمل، حرصنا على قضاء أوقات طيبة أثناء خدمتنا بالإسكندرية، تمددنا كثيرا على شواطئ الثغر، وتنقلنا ما بين كازينو وآخر، ثم صدر الأمر بانتقال وحدتنا من الإسكندرية إلى العريش.. تعرفنا على صحاره وجبال سيناء، لأول مرة. عشنا حياة الخدمة الميدانية بالجبهة تلقينا ذات يوم خبرا هاما أثناء اجتماع قائد الوحدة بنا، سيزور جمال عبدالناصر الجبهة في سيناء، وسيتناول أفكاره معنا في الغد.. وقع الخبر علينا وقع الصاعقة سنرى عبدالناصر بأعيننا وسيجلس معنا علي مائدة واحدة وبالتأكيج سيتكلم معنا، وقال بالفعل كلمته بعد انتهاء الإفطار، كان أهم ما قاله: المطلوب أن يقوم كل إنسان بواجبه بصرف النظر عن العائد والنتيجة، المقاتل يقوم بواجبه على أحسن وجه بصرف النظر عن النصر والهزيمة، قام "عرابى" بثورته، وانحاز لحقوق الشعب، ولم يبوقف عند احتمالات النجاخ والفشل، أصبح القدوة والمثل الأعلى لمن جاءوا بعده، قام بواجبه ورحل، قامت بعده ثورة 19 لتواصل المسيرة التي بدأها "عرابى" قامت ثورة يوليو 52 لتستكمل المسيرة، كفاح الشعب لايتوقف من أجل حريته وتحقيق الرخاء.

رموز الكفاح والنضال تقوم بواجبها وتمضي، ونحن نقوم بواجبنا الآن وسوف نرحل مثل من رحلوا قبلنا".

انتهى الاجتماع، ولم ينته حديثنا، نحن أبناء الثورة ومقاتليها، عما سمعناه.

تكلمنا جميعا بلا انقطاع، ولم ينطق محمود السيد بكلمة واحدة، كان الوحيد الذي أريد أن أسمع رأيه فيما قاله عبدالناصر، كنت أشعر في داخلي أنه يفهمم ما لا نفهمه، ويرى ما لا نراه، انتظرت حتى المساء لأقتنص فرصة انفرادي به. زرته في موقعه.. أدرك بذكائه هدفي من الاختلاء به.

لاذ بالصمت انتظر بصبر مفاحتي له لمعرفة انطباعاته عن هذه الزيارة المدهشة، سألته:

– ما رأيك في هذا الزعيم؟

–زعيم يملك كل مقومات الزعامة.. يعرف مايريد.. ويعرف كيف يحقق ما يريد.

– أنت إذن معجب به.

– لا أشك في وطنيته وإخلاصه.. لكني أخشى عليه وعلى البلد من طموحاته الشخصية.

– أضـمن أنـك تلمـح إلى عـزل محمـد نجيـب.. وإعفـاءه مـن كـل مناصـبه.

– هذا الحدث يستحق الدرس والتمحيص.. نقطة تجول خطيرة في مسيرة الثورة.

– محمـد نجيـب كانـت لـه أيضـا طموحاتـه الشخصـية، وهـذا لايشـكك في وطنيته وإخلاصه.

– محمد نجيب أراد عودة الجيش إلى ثكناته، وتسليم الحكم للمدنيين.

– هذه ثورة لها أهداف.. من حقها أن تتولى بنفسها تحقيق هذه الأهداف.

صمت محمود طويلا، بدا أنه يستشرق آفاق المستقبل، وهو يقول:

– من الآخر.. نحن أمام حكم عسكري لا نعرف متى ينتهي.. متى يسلم السلطة للمدنيين!

– هل تريد العودة إلى تناحر الأحزاب.

– الحاكم القوي المفرد بالسلطة يضعف شعبه.. يعقمه من حق إبداء الرأي والاختلاف..

عنـدما يتحـول الحـاكم القـوي إلى أسـطورة يعجـز في النهايـة عـن التفريق بين الحقائق والأكاذيب.

سألته بانفعال زائد، يجمع بين الحيرة والتردد والإعجاب.

– مـن أيـن أتيـت بهـذا الـوعي السياسـي، ولم تـزل في العشـرين مـن عمـرك؟

– انشــغلت بالسياســة وأنا في العشــرة مــن عمــري.. كنــت أشــارك في مظاهرات، ويتم القبض علي.

واصلنا الحديث بعض الوقت.. انتهى اللقاء. قررت الانصراف.. توقفت عند مخرج موقعه عندما سمعته يناديني.. أدرت وجهي نحوه، قال بما يشبه الحكمة.

– يظل الحاكم الفرد يصدق ويصدق حتى يتحول إلى أسطورة.. عند ذلك يظل يكذب ويكذب فيصدقه الناس.. ويظل يكذب ويكذب فيصدق نفسه.. هذه حكمة لمفكر ألماني في زمن النازية.

تذكرت مقولة "محمود مرسى" هذه، وأنا أسترجع ما جرى قبيل وأثناء نكسة يونيو **1967**.

تذكرته مرة أخرى، وأنا أسترجع أسطورة نصر أكتوبر **73**، ثم ما جرى بعد ذلك للحاكم الفرد في حادث "المنصة" في أكتوبر **1981**.

لم نبق طويلا في موقعنا بالعريش انتقلت الوحدة إلى موقع أمامي متقدة في رفح، لم يكن يفصلنا عن موقع العدو المقابلة أكثر من**500** متر، أصبحنا الآن وجها لوجه أمام العدو الإسرائيلي نراقب تحركاته وسكناته، نرصد استعداداته، نرى جنوده لأول مرة بلحمهم وشحمهم، نرقبهم وهم يغنون ويرقصون تحت أضواء خافتة، لا نعرف إن كان ذلك على سبيل التسلية والترفيه، أما على سبيل استفزازنا، كان ذلك قبل بدء العدوان الثلاثي بثلاثة شهور.

كان هناك وقف تام لإطلاق النيران، وعدم وجود أية تحرشات ارتحنا كثيرا، أنا ومحمود، لشخصية قائد الكتيبة الجديد.. كان على درجة كبيرة من الثقافة والوعي بمناحي الفكر السياسي والاقتصادي وما يجره في

عالمنا المعاصر، كنا نتحاور ونتناقش مع في مختلف القضايا والموضوعات، دونما تجاوز لمقتضيات الانضباط العسكرة، أو التورط في موضوعات أو أفكار حساسة، تتعلق بتوجهات ورؤى المشروع الثوري القائم، كنت أنا ومحمود أقرب الضباط إلى عقل قائد الكتيبة.

"أصبح فيما بعد مديرا للمخابرات العامة"، رغم سننا الصغير نستطيع أن نفهم ما يقول ونعلق ببساطة وبراءة على شروحاته الفكرية. كانت لي أيضا حواراتي الهامة التي تصل أحيانا إلى مجادلات حادة مع محمود السيد، اقتربت منه كثيرا، تعديت خطوطه الحمراء، توغلت في داخله، فتراجعت حساسياته بحكم انطوائيته، لم يكن يحب أن يكون شخصه موضوع حدين وها هو يبوح ويعبر ويفشي عن المكنون، علمت أنه كان وفديا متعصبا لوفديته في صباهن يؤمن بالديمقراطية وحرية التعبير، يلتزم بالتعددية وتبادل السلطة السياسية، والشعب هو مصدر السلكات فهمت أنه لا ينشغل كثيرا بالعلاقات النسائية، والمرأة في نظره هي زوجة وام أولاد ومكانها البيت، بحكم نشاته الريفية، لم يشاركنا، ولو مرة واحدة، في أي سهرة نسائية، لم يذق أبدا طعم الكحوليات، ولم يشرب، ولو على سبيل التجربة سيجارة واحدة محشوة بالمخدرات، بدا لي كأنما يعد نفسه لمهمة، والظهور بمظهر مهيب يحافظ على مسافة محسوبة بينه وبين رؤساءه ومرؤوسيه.

وحان وقت الصدام والنزال مع العدو الإسرائيلى، حدث العدوان الثلاثي في **29** أكتوبر **1956**، كنت أنا ومحمود نحتل موقعا متقدما في

رفح، وفي حالة مواجعة مباشرة مع القوات الإسرائيلية، كنت أنا قائد لوحدة المشاة، وكان محمود قائد فصيلة القواذف المضادة للدبابات "البلندسيد". لم يقتنع محمود ببقائنا في مركز قيادة الموقع طلب من أن ننتقل إلى الخط الأمامي للموقع، حتى نصبح وسط الجنود لنشعل حماستهم وندعم صمودهم، تخندقنا في الحط الأمامى.. لم يكتف محمود بذلك أمسك بنفسه بقاذف "بلندسيد"، ليدمر بأصبعه يده القابضة على الزناد دبابات العدو. صمدنا يومين، لم ينج العدو، وفي مساء **31** أكتوبر وصلنا الأمر بالانسحاب السريع من سيناء إلى منطقة العناة، للدفاع عن القناة وعن مصر، بعد احتلال القوات البريطانية والفرنسية لبورسعيد وما حولها.

طلبت من محمود أن نرتب لحظة انسحاب منظم قال لي بهدوء مذهل: "من قال لك إنني سأنسحب؟" قلت دون تردد: صدر أمر الانسحاب من القيادة العامة للجيش. هذا أمر واجب النفاذ.. لا نعرف كل ما يجري في ميدان القتال، أطلق قذيفة بلندسيد، دمرت جنزير دبابة وعطلتها عن مواصلة التقدم، ثم عاد يقول بانفعال زائد: "مازلنا قادرين على إيقاف العدو وتدميره.. لم يسقط موقنا بعد.. لماذا ننسحب؟.. فلتكن مهمتنا الآن حماية ظهر المنسحبين، ذكرته بأن هذه ليست آحر معركة مع العدو، ولنا بالتأكيد جولة أخريمعه، عاد يقول وسط أزيز النيان، لست مقتنعا بالانسحاب أمام عدو عاجز عن اقتحامي وهزيمتي.. عدت أقول له برجاء: "تذكر أنك تعصي أمرا بالانسحاب.. ليست هذ

معركة كربلاء ولست الحسين عاد يقول بعناج وتصميم طالبنا عبد الناصر في كلمته الأخيرة لنا بفعل الواجب بصرف النظر عن النصر أو الهزيمة".

لم يعد من الأمر بد.بقي من بقي مع محمود السيد انصعت لأمر القيادة، وانسحبت مع باقي جنودي شاهدت العدو بعد انسحابى، وهو يحاصر الموقع، نجخ بعض الجنود في الإفلات من الحصار، ولحقو بنا علي طريق العودة سالت أحدهم عن مصير محمود السيد، أفادني بأنه استشهد تحت جنزير دبابة نجهت في اختراق الموقع.

لم تغب صورة محمود عن ذاكرتي طوال حياتي، فقدت أعز صديق تصورت أنه لن يفارقني بهذه السرعة، تخيلته ونحن نقتحم قناة السويس عبر القوارب والكباري ونحطم خط بارليف تذكرته أثناء توقيع معاهدة كامب ديفيد، تذكرته وسط ضجيج حادث المنصة، لم أتوقف عن قراءة الفاتحة على روحه، وأنا اتابع مجريات الأحداث.

موسى داود

هو ابن عمي.. وهو بمثابة الأب الثاني لي ولأخي الأكبر هشام، ويحتل منزلة الإبن الأول لأبي بحكم الرعاية والعطف والتوجيه، تعودت أن أراه بمنزلنا بالقرية كل يوم، طوال شهور الإجازة الصيفية الثلاثة، تولى أبي تعليمه حتى حصل علي دبلوم مدرسة المعلمين، وأصبح مدرسا للمرحلة الإلزامية "الابتدئية حاليا" أراد موسى أن يرد الجميل لأبي فكان يراجع معي، أنا وهشام دروس اللغة العربية والحساب طوال أيام الإجازة.

تولدت بيني وبين موسى علاقة محبة واحترام، كنت في السادسة من عمري عندما تعرفت عليه، تطورت علاقتي له تحولت إلى صحبة إعجاب وانبهار بهدوئه وطيبته ومظهره المهيب، طويل القامة أطول رجل عرفته في حياتى، له أنف بارز يجمع بين سمرة أهل الريف وسواد االعينين، وصدر عريض وقوام رشيق بلا كرش، تعودت أن ألاحظه في معظم المحيطين بي من الكبار يرتدي جلاليب زاهية فضفاضة وطاقية حديثة لها كورنيس، ليست كطواقي الفلاحين الصوفية، لم أره مرة واحدة غاضبا أو منفعلا بعصبية واحتداد، عندما يضحك، فمن أعماق قلبه وبصوت لايصل إلى حد القهقهة، كان عميق التدين، يرتجف قلبه بالإيمان وليس فقط بالشعائر والطقوس، يصلي الفرض في وقته، يبتهل ويتمتم بالدعاء كلما اختلى بنفسه، أدى فريضة

الحج بعد عام من اشتغاله بالتدريس كان يدب أن نناديه دائما بـ"يا حاج موسى".

كنت قريبا إلى قلبه أكثر من أخي هشام. يراني مجتهدا في دروسي، راغبا في التعلم، مستجيبا لتوجيهاته، لا أميل إلى الشقاوة واللعب مثل أخي هشام، الذي يضيق بتمرده، وعدم استذكار دروسه، لم يتوان عن تذكير ببعض تصرفاتي، حتى بعدما كبرت.. كنت عندما أحوع أصرخ وأقول: "آكل..آكل.. آكل" عندما كبرت وكانت تجمعنا مائدة طعام، يستغرق في الضحك وهو يرمقني بنظرة محبة: "آكل.. آكل.. آكل"، وينغمها بنفس الطريقة التي كنت اقولها.

وصلت إلى سن الثامنة، ومازلت آكل وأشرب وأكتب بيدي اليسرى..

لم يتقبل الحاج موسى هذه العادة بحكم تدينه نصحني أكثر من مرة، ولم أرتدع، استعصي التعود على التغيير، تحول نصحه مرارا إلى تحذير، ثم قرر أن يعاقبني كننا نتغدى سويا عندما بدات أتناول طعامي بيدي اليسرى.. أمسك بيدي اليسرى. سحبني بعيدا عن الممائدة، استل فرع شجرة، وأخذ يضربني على يدي حتى سال منها الدم.

وضعت يدي المجروحة على قلبي، الذي انكسر وسال منه دم آخر، دم الكرامة وهيبة الأمل جريت مذعورا نحو جامع العائلة القريب توضأت بتوتر وعصبية وصليت الظهر دعوت الله كثيرا، ولكني لم أغفر لموسى

فعلته، مرت السنوات والأعوام دونما انقطاع، تذكرت هذا الحادث عندما كنت أتناول الغداء مع خطيبتي التي أصبحت زوجتي، وكان معنا أخوها طبيب الأعصاب، رجتني أن آكل بيدي اليمني بحكم تدينها، اعترض أخوها الطبيب من وجهة نظر طبية، قال إن هذه العادة مرتبطة بالتركيب العصبي للمخ، وليس من المناسب صحيا عدم الاستجابة لنداء المخ، سعدت كثيرا بهذه المعلومة الطبية، رأيت فيها نوعا من المصالحة بين الدين والعلم. حرصت على التمسك بهذه المصالحة في شتى مناحي التفكير والسلوك.

تواصلت السنوات والأعوام وقرر الحاج موسى أن يتزوج، كانت عينه على أختي "نعمات". تحسس طرقة نحو استرضاء أبي والحصول على موافقته. باءت محاولاته بالفشل، كان أبي يطنع في عريس لنعمات أعلى مقاما من مقام مدرس "إلزامي".

عانى موسى من الشعور بالإحباط بعض الوقت، حتى تزوج وانشغل بحياته، وانقلبت علاقته بنا إلى شبه قطيعة، ولم أعد أراه إلا في مناسبات الأفراح والمآتم.. كان كلما رآني بالبدلة العسكرية يقول لي بمودة وإعجاب: "إزيك يا فالح.. لم أكن أصدق أنك ستكون أحد رجالات الثورة التي تحكمنا الآن".

أنجب موسى صبيانا وبناتا تمكن آخر ابن له من دخول الكلية الحربية بدون وساطة، وأصبح بعدي ثاني ضابط في قريبنا.. اتصف ابنه "سالم" بالتدين العميق إلى حد التعصب الذي أدى به إلى الانتماء السري

لتنظيم الجهاد، وهو في رتبة النقيب، عندما تم توقيع معاهدة "كامب ديفيد"، وما أن بدأت التحريات والاعتقالات بعد حادث المنصة في أكتوبر 1981، حتى تم القبض عليه بتهمة الانتماء لتنظيم الجهاد المحظور، وحكم عليه بالسجن 15 عاما.

مرت عدة سنوات عندما انتهز موسى فرصة تواجدي بالقرية وحرص على مقابلتي. كان يعرف أنني وصلت لرتبة "العميد" وأشغل منصبا كبيرا. أهداني فطيرة "مشلتت" فاخرة، وكان يعرف أنني التهمها بأظافري قبل أصابع يدي اليسرى، طلب من أتوسط لابنه للإفراج عنه.

أخفيت دهشتي وعجبي وذهولي، قلت له إن طلبه مستحيل، لا يمكن التوسط لمتهم شارك في جريمة قلب نظام الحكم، والتنظيم الذي ينتمي إليه سالم مازال يواصل العمليات الإرهابية، كان "السباعى" ابن عمي يحضر هذه الجلسة وهو فلاح ريفي بسيط، لم يهفم هو الآخر عجبه وذهوله.

لم يكن من حقه أن يعلق أو يبدي رأيه، وهو فلاح بسيط، اكتفى بطأطأة رأسه ومصمصة شفتيه، طلب من موسى أن أزوره في السجن، لأخفف عنه آلام التعذيب أفهمته أنه حتى طلبه هذا مستحيل، لأنه يثير الشبهات، وربما يعقد الأمور.. شعرت أن موسى كان يفرج عن آلامه وعذاباته، وربما كان يعي في أعماقه بيأس المحاولة، انصرف موسى وهو يجرجر أذيال الإحباط.

نفخ "السباعى" آخر أنفاس عجبه ودهشته سألني باستغراب.

ماذا يريد منك هذا الرجل؟

- سمعت بأذنيك.

- هل هذا طلب رجل عاقل؟.. رجل متعلم؟

- الألم والعذاب يجعل إنسانا يتمطى بريشة في الهواء أو بحبل مقطوع. قال "السباعى" بانفعال يصل إلى حد الهياج.

- يا سيادة العميد.. سالم لم يسرق جاموسة.. سالم عصى الفرعون.. انقلب عليه.. كان يستحق الإعدام.. ربنا ستر.. يحمد ربه أنهم لم يؤذوه بجريمة.

أدهشني تعليق السباعي بدا أكثر وعيا، رغم بساطته، من الحاج موسى، عبر بوضوح عن علاقة المواطن المصري البسيط بحاكمه.. طاعة الفرعون.. عدم التفكير في الغضب والعصيان.

مرت سنوات كثيرة، كان قد قرأ بعض قصصي ورواياتي في الصحف، اتصل بي تليفونيا هنأني بحماس على اجتهادي وشطارتي، طلب من أزوره في أقرب وقت وأن أهديه بعض كتبى، ليصحح لي بعض أخطائي النحوية، زرته بالفعل استقبلني بفرحة غامرة وهو يحتضننى، ويضحك من أعماق قلبه، وهو يذكرني بصرختي الطفولية:"آكل.. آكل.. آكل" قال لي ونحن نتناول العشاء: "إزيك يا فالح.. لم تكتف أن تكون ضابطا فاصبحت كاتبا مثل طه حسين وتوفيق الحكيم".

قلت له بتواضع: "كتبت على سبيل الهواية.. ولا اتوقع أن أصبح كاتبا كبيرا.. ذكرني بأن أبي تمنى أن يكون كاتبا، ولم يتحقق أمله، وهو الآن سعيد في قبره، لأنني حققت أمله نيابة عنه.

مرت سنوات أخرى كثيرة، تم الإعراج عن سالم موسى. لم تطل إقامته بمصر سافر إلى السعودية، ومنها إلى أفغانستان، ومن أفغانستان إلى أمريكا. حصل على الجنسية الأمريكية، أصبح يزور مصر بصفته مواطنا أمريكيا، فوجئت بدعوته لي لحضور زفاف ابنتي البكر في فندق "شيراتون" بالمنتزه حرصت على حضور الحفل، لأتعرف على قريبي الذي لم أعد أعرف عنه الكثير، حضرت الحفل جلست في المقعد الذي خصص لي، لفت نظري روح النظام والانضباط الذي يسود الحفل. هناك منصة تتصدر القاعة يجلس خلفها خمسة من المشايخ والفقهاء هناك قاعة للرجال وأخرى للنساء، وجدت نفسي وسط أكثر من خمسمائة مدعو، بعضهم يرتدي بدلات وبعضهم يرتدي الجلاليب والعمم، ومنهم من يرتدي القال والعباءة، والأدخنة تتصاعد من الأوعية التي تحوي شتى صنوف طعام العشاء الفاخر، استمنا إلى النصائح والتوجيهات الدينية من خلال كلمات الجالسين خلف المنصة. لم يكن هناك غناء أو موسيقى أو رقص.

كان الجالس بجواري هو الطبيب على موسى أخو سالم، لم أكن قد رأيته منذ صباه الباكر، أخذ كل منا يتعرف على الآخر، كأننا غرباء ولسنا أقارب، حدثت بيننا ألفة ذوبت جليد البعاد، بعد أن تحدثنا في

الخصوصيات والعموميات، تحكمت في لهفتي بعض الوقت لمعرفة آخر أحوال وأخبار سالم. أبلغني بأن هذا الاحتفال تكلف مائة وعشرين ألف جنيه، انتهزتها فرصة لسؤاله عن أحوال سالم، أخذ يحكي بإسهاب وبلا تحفظات علمت منه أن سالم يملك شقة فاخرة في نيويورك، وأخرى في لندن، وبيتا بحديقة في "مكة"، ويملك سيارة "لاندروفر" ذات زجاج مانع من اختراق الرصاص، وصاحب شركة سياحية في أمريكا، ترعى وتنظم رحلات الحج لمسلمي أمريكا، وترتب لهم من يصحبهم في طقس الطواف، علمت أن له ثلاث زوجات وعشرة أبناء وسبع بنات، ولا يكف عن الطواف بالبلدان الإسلامية بجواز السفر الإمريكى.

حرصت في نهاية الحفل، على إعادة تهنئة سالم بزفاف ابنته، واستئذانه في الانصراف.. تبادلنا الاحتضان بمحبة ووقار، قال لي بثقة زائدة:

– أنا في انتظار زيارتك في أمريكا.. هذه دعوة تتضمن التكاليف.. هل لديك مانع؟

لم أنبهر بالعرض.. ابتسمت وأنا أقول له بتحفظ.

– الموانع كثيرة.. أشكرك على أية حال.

عاد يقول لي بلهجة من يقدم عرضا مغريا.

ألم تفكر في كتابة القصص والروايات الإسلامية"؟.. الناشر عندي والأجر كبير.

بالغت في توديعه بحرارة انتابني هواجس بأن هذا اللقاء ربما يكون آخر لقاء أردت أن أطمئن عليه بعد حادث تدمير برجي "نيويورك" في 11 سبتمبر 2001، قال لي أخوه علي بيأس:

– انقطعت صلته بنا.. اختفى من أمريكا.. ربما يكون في أفغانستان أو في سجن "جوانتانامو".

أخبرني علي بأن أباه "الحاج موسى" لم يعد يغادر سريره. سقط ضحية اكتئاب نفسي حاد مصحوبا بفقدان الذاكرة.

عبد الستار المواردي

تعرفت عليه بعد أن انتهت خدمتي العسكرية، وبدأت نشاطي الأدبي، وأصدرت مجموعت القصصية، الأولى في عام 1979، التي تواكب نشرها مع توقيع معاهدة "كامب ديفيد" ولأنني أصدرت "المجموعة" على نفقتي الخاصة، نصحني من تعرفت عليهم من الأدباء، بإهدائها إلى المشرفين على الصفحات الأدبية في الصحف والمجلات، للتعريق بها من خلال نشر أخبار ومتابعات نقدية، تحمست للنصيحة، كانت دار "أخبار اليوم" قريبة إلى نفسي، فكانت أول ما توجهت إليها التقيت بالصدفة بالصحفي الشاب "مصطفي عبدالله"، الذي كان يعمل بالصحفة الأدبية، بصحيفة الأخبار، لم يخف دهشته وهو يتأمل بعض الشعرات البيض في رأسى، كاتب لا يقل عمره عن أربعين عاما، يصدر أول مجوعة قصصية له. نصحني بالتعرف على الأستاذ عبد الستار المواردي "المشرف على الصفحات الأدبية بالدار".

وإهداء كتابي له، كنت أتابع عموده اليومي بصحيفة الأخبار. اقتربت من مكتب الأستاذ "المواردى" بحرج. كنت أعي أنني أخوض تجربة متهورة في سن متأخرة، توفقت لحظات وأخذت أتأمله، رجل لا يقل عمره عن ستين عاما.. قصير جدا ونحيل، لايكاد يظهر على مكتبه، لا يزيد وزنه عن أربعين كيلو جراما، رأس أصلع صغيرر، مدقون داخل كومة كبيرة من

الأوراق، مرهوب الجانب. لايقترب أحد من مكتبه إلا لسؤال أو إبلاغ معلومة.

قدمت إليه الكتاب، دعاني للجلوس بإشارة محسوبة من يده، أخذ يتصفح الكتاب بهدوء وتؤدة.

أخفى دهشته بخبرة محترف، سألني عن عمري قلت **44** عاما، سألني لماذا تأخرت، قلت لأنني قضيت ربع قرن من الزمان في الجيش، سألني ماذا تعرف عن الكتابة، أخبرته بأنني حصلت هذا العام على ليسانس آداب قسم لغة عربية، قال بنفور: هذا أكبر خطأ في حياتك، قلت لماذا؟ قال بثقة: كان يجب أن تلتحق بمعهد الفنون المسرحية.. المسرح أبو الفنون.. أنا لا أعترف بما يسمونه فن القصة والرواية.. هذا استسهال لا ينتج فنا أصيلا.. أدركت أنني ضللت طريقي.. اتجهت إلى الصحفي الخطأ. نهضت وتهيأت للانصراف.. دعاني للجلوس، أهذ يحدثني بود زائد، علمت منع أنه حصل على ليسانس الفنون المسرحية وأصبح أستاذا بالمعهد، وأنه كان يعيد كتابة المقررات بخط يده، ليضاعف استمتاعه بالمادة الدراسية، أفهمني أننا نعيش حالة انحطاط ثقافي بسبب تراجع الكتابة الأصيلة للمسرح.

لم أجد عندي ما أقوله، عدت أتهيأ للانصراف، طلب مني مهلة حتى يقرأ مجموعتي القصصية.. وعدني بالتعليق عليها إذا أعجبته، لم أصدق ما

سمعت، طلب مني وعدا بالكتابة للمسرح بعد أن أعد نفسي لذلك، لم أجد ما يمنعني من تنفيذ الوعد.

فوجئت بعد عشرة أيام بأنه كتب تعليقا عن "المجموعة" في عموده اليومى، كدت أرقص طربا، أدركت أنه قرر مساندتي ولو من باب التشجيع، توطدت علاقتي به، أصبحنا أصدقاء حتى آخر يوم في حياته، تعلمت منه الكثير، لم يبوقف عن استدراجي للكتابة للمسرح، فاجأته بعد ثلاث سنوات بأول مسرحية كتبتها احتفل بي بفرح غامر، لم يكن عادته أن يقدم مشروبا لأي ضيف كان يرى في هذه العادة مضيعة للوقت، صمم دعوتي لفجان قهوة تغامز الصحفيون وهم يتأملون فنجان القهوة. تصوروا أنني شخصية أسطورية، أتت من كوكب آخر غير كوكب عبدالستار المواردي.

كان طبيعيا أن أتتبع مسيرة حياة "المواردى" علمت أنه رجل عصامي حصل على الثانوية العمة، هو موظف بالسكة الحديد، عمل صحفيا تحت التدريب بدار أخبار اليوم لمدة خمس سنوات، حتي تم تعيينه. تألقت موهبته الصحفية، حتى أصبح الآن مشرفا على كل الأبواب الثقافية بصحيفة الأخبار، انتسب إلى معهد الفنون المسرحية، وحصل على الليسانس بدرجة امتياز، وعين مدرسا زائرا بالمعهد أصبح ناقدا مسرحيا لا يشق له غبار.

علمت أيضا أنه من أسرة فقيرة، توفي والده وهو في الخامسة عشر من عمره، وترك له أربعة أخوة بنات وولدين. قرر عدم الزواج. قرر رعاية

وتعليم إخوته، حتى حصلوا على شهادات جامعية، لم يتوقف عن النضال والمجاهدة حتى تم زواج كل إخوته. أغلب الظن أن رحلة الكفاح قد أنهكته، فلم يفكر في الزواج والإنجاب، شغلتني طويلا فكرة امتناعه عن الزواج، تحرجت من سؤاله. كانت صداقتي للصحفي الشاب مصطفى عبدالله، قد قطعت شوطا طويلا، لمحت له بالسؤال، استغرق في الضحك اتهمني بالسذاجة والبراءة. علمت منه أن المواردي كان يتابع الممثلة المسرحية الشهيرة سناء وجدي بمحبة واهتمام بحكم موهبها الفياضة، وقد كتب عنها الكثير من مقالاته النقدية، ثم أصيبت باضطرابات عصبية حادة أقعدتها عن مواصلة التمثيل. تولى رعايتها وعلاجها قرابة عامين، تحسنت حالاتها، ولكنها عجزت عن مواصلة التمثيل، انقلبت علاقة المواردي بها من علاقة عطف وتقدير إلى علاقة حب جارف، فتحها في الزواج فقبلت دون أدنى تردد، بعد أن انقطعت صلتها بالحياة القنية، وأصبح "المواردي" هو السلوي والعزاء، عاد مصطفى عبدالله يقول وهو يغمز بعينه اليسرى: "أعتقد أن العلاقة بينهما هي علاقة حب نقي وطاهر أكثر منها علاقة زواج تقليدية".

لم يتوقف عبدالستار المواردي عن متابعة إنتاجي القصصي والمسرحى. كان يتحفني بالكتابة عن كل كتاب أصدره في عموده اليومي، حتى أن أصدقائي وزملائي كانوا يسألونني دون انقطاع: ماذا بينك وبين هذا الرجل الذي لم نعرف له صديقا طوال نشاطه الصحفي؟ كنت أقول لهم بصدق: لأنني استمعت لنصيحته وكتبت مسرحيات أعجبته "قال لي

صديقي الناقد جمال البدري: لقد نجح في تدمير مستقبلك. نحن في زمن الرواية والدراما التليفزيونية ولسنا في زمن المسرح.

كانت لعبد الستار المواردي اهتمامات فنية عديدة، من بين هذه الاهتمامات، حبه للفهان الراحل سيد درويش، دعاني مرة لتناول الغداؤ مع في المطعم القائم بالدور العلوي لمبنى أخبار اليوم، كنت أعرف أنه رئيس جمعية "سيد درويش". كان دائما ما يفوز برئاسة الجمعية بالتزكية، أعتقد أن مجلس الإدارة يزكيه بلا منافسين، ليحظى بالتغطية الصحفية، المطلوبة لنشاط الجمعية، من صحفي كبير ومرموق مثل "الموارديى". سألته وأنا أقشر أصبع موز في نهاية الغداء، هل اهتمامه بسيد درويش من باب النشاط الفني أم أن له منزلة خاصة نفسه، غضب من السؤال، اتهمني بالجهل ونقص المعرفة بالقمم الفنية والاستسلام للغناء الهابط في زمن السندويتشات، عاد يقول بحماس وانفعال: سيد درويش صاحب ثورة غنائية ليس لها مثيل.. نقل الغناء العربي من مدرسة التطريب إلى مدرسة التعبير.. من الغناء التركي المنتظم الإيقاع الرتيب إلى الغناء الشعبي الوطني الذي يمس قلوب الناس البسطاء، فيحفز الهمم ويغذي الروح الوطنية.. ساهم أيضا في تطوير المسرح الغنائي الصاعد في أيامه.. سيد درويش في نظري أعظم من عبدالوهاب وأم كلثوم، كان المواردي ينطوي على حنين جارف للماضي، وشديد السخط على المتغيرات الفنية المعاصرة، التي يراها هابطة ومفسدة للذوق الرفيع.

ما لفت نظري أيضا في شخصيته، هو ابتهاده التام عن الحديث في السياسة، كانت علاقتي به قد تجاوزت كل الخطوط الحمراء، سمحت لنفسي

أن أسأله عن سبب عدم انشغاله بأمور السياسة، قال لي بدون تحفظ أو مواربة: السياسة في رأيي هي فن الكذب. السياسي يجب أن يتحلي بصفات قاطع الطريع.. لا يعبأ كثيرا بالدين والأخلاق والمشاعر الإنسانية.. ثلاثية السياسة هي المصالح والثروة والسلطة.. أقرأ كتاب ميكافيلي "تدرك هذه الحقيقة.. كل من حولي يتصور أنني غافل عما يجري في الواقع الساسي..هم الجهلاء ولست أنا الجاهل.. أنا أتابع كل صنوف النصب والاحتيال وتحليت بفضيلة الانصراف عندما قلت له إن شكسبير كان يملك وعيا سياسيا عاليا، أعجبته الملاحظة، وقال بانفعال ساخن: أعظم ما في الكاتب المسرحي شكسبير هو أنه حول وعيه إلى فن خالد.

استغرقتني شواغل كثيرة، فانقطعت لفترة طويلة عن زيارة عبدالستار الموادري: كانت تعرض لي مسرحية على مسرح سيد درويش "أوبرا الإسكندرية حاليا"، تحمست لدعوته لمشاهدتها ومعرفة رأيه فيها، التقيب بالصحفي الشاب مصطفي عبدالله قبل أن التقي بالموادري.

عرف مني أنني سألتقيه فقال لى: لاتنس أن تعزيه في مصابه الأليم علمت منه أن سناء وجدي توفت بذلك المرض الخبيث العضال. صعدت وأنا في غاية القلق والتوتر، جلست أمام مكتبه وأنا لا أعرف ماذا أقول، رأيت شخصا آخر أمامي. إنسان ذابل، شاحب الوجه. يقلب أوراقا بلا حماس. عيناه مطفئتان. يد مرتعشة. زاد جسمه نحولا على نحول شارد الذهن. فاقد لليقظة والوعى، غير قادر على قول كلمة ترحيب. قلت له بحزن حقيقي: "ألقية في حياتك" قال بلهجة مكسور الخاطر. لماذا تبقى

حياتى.. ما الفائدة؟ سألته عن إرادته الحديدية، عن إيمانه بفن الصحافة عن الناقد الجبار في داخله، عن وعيه الثاقب بالمصير الإنسانى، قال لي بنظرة كسيرة وهو يرمي بنظارته فوق الورق: كانت الصحافة هي حبي الأول والأخير.. جردت نفسي من أي مشاعر خاصة، حتى لا أكون للصحافة منافسا أو غريما.. إلى أن التقيت بسناء وجدي فأصبحت هي المنافس والغريم.. أصبجت حبي الأول والأخير.. رحلت سناء وأخذت معها رغبتي في مواصلة الحياة.. كان حبا طاهرا نقيا، بعيدا عن الشهوات. لم يتمالك نفس. استسلم لبكاء مر أليم.

لم أفكر لحظة في دعوته لمشاهدة مسرحيتي، لم يكن الظرف مناسبا بأية حال، دعوته لتناول الغداء في كازينو "قصر النيل" قال إنه لم يعد يتذوق الطعام، بكسرة خبز وقطعة جبن، ويتغدى ببضعة ملاعق من الفول، أدركت بيقين داخلي أكيد أن عبدالستار المواردي لن يقيم في دنيانا وقتا طويلا، لم تمر بضعة شهور حتى جاءني نبأ وفاته، لم يمش في جنازته كثيرون. لم يكن له أصدقاء من الصحفيين والفنانين، كان يقتات من أمجاد الماضي العتيد، كان غاضبا على ما يجره حوله، قرأت تعليقا لصحفي كبير بمناسبة تأبينه: عاش وحيدا.. توحد مع حبين.. حب الصحافة وحب سناء وجدي.

صلاح خدام

لم تمض بضعة شهور على تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام 1985، حتى انضم إلى السرية التي أقودها ضابطان سوريان في ميعة الصبا والشباب، يحملان على أكتافهما رتبة "الملازم أول"، صلاح خدام والراهيم قنوت، لم تلفت نظري شخصية صلاح خدام، بدا بسيطا، متساهلا خالي البال، لايتحمس لمناقسة تجهد العقل وقد يترتب عليها خلافت، لاحظت أنه يميل إلى الحيطة والحذر، بحكم غربته عن أهله ووطنه الشمالى، ولا يتعجل الاندماج في المنظومة العسكرية الجديدة عليه، والتي انضم إليها، لاحظت أنه يميل إلى العزلة.

الانطواء داخل ملجأ إقامته بالموقع، بعد الفراغ من التدريب، لم أعرف كيف يقضي وقته وحيدا إلا عندما زرته في الملطأ، ورأيته مستغرقا في قراءة ديوان شعر "لنزار قبانى" عندما قلت له إنني أحب الشعر، وقد قرأت الكثير من في صباي، وأحفظ بعض الأبيات للمتنبي وأبو تمام، ومازلت أتابع القراءة بمتعة وانسجام، عندما قلت له ذلك تفتح قلبه وتحدثنا طويلا عن شعر المتنبي وأبوتمام وغيرهما من فحول الشعراء.

وضعت تيدي على ديوان نزار قباني وقلت له بمودة وتقرب: يبدو أنك رومانسى"، بدوت كأنني أطلقت سراح مشاعره، فاندفع يقول بلا

حرج: الحب هو أكسير الحياة.. لا معنى للحياة بدون حب الحب ينعش الأمال، ويخفف المتاعب والآلام، أدركت أنه يطلق العنان لمشاعره، ولا يشغل نفسه باقضايا السياسية والاجتماعية، ارتفع بيننا التكليف، فعلمت من أن نقله إلى مصر قد أبعده عن حبيبته لمياؤ، وهو يعاني من لوعة الفراق، ويتحرق شوقا للعودة إلى "اللاذقية"، حيث يتمرغ مع "لمياء"، على رمال شاطئها، رجاني أن أصحبه في إجازته الشهرية إلى الإسكندرية سألته عن سر حبه لهذه المدينة التي لم يرها من قبل قال لي وهو يغرس أقدامه في رمال شاطئ سيدي بشر وبلغة شاعرية: أخس بأن أمواج البحر تنقل رسائلي إلى "لمياء" في اللاذقية بأسرع من طريق البر، لم نتوقف عن تبادل أبيات الشعر المأثورة، من عمر ابن أبي ربيعة إلى نزار قبانى، أصبحنا صديقين بلا خطوط حمراء، كان قد مضى عام، عندما رأيت أن الوقت قد حان لسؤاله، ذلك السؤال الذي قد يسبب له حرجا وربما يجلب عليه متاعب من نوع ما. سألته كيف تم اختيار الضباط السوريين الذين يخدمون بالجيش المصري في الإقليم الجنوبي؟.. رمقني بنظرة متفحصة، تستبطن قصدي من السؤال رجوته ألا يجيب إذا كان هناك ما يمنعه أو يتحرج منه، كانت ثقته بي قد تعدت كل التحفظات، صمت قيلا كأنما يرتب لانتقاء ألفاظه، ثم قال بهدوء يشوبه بعض التردد:

لا.

أنت تعرف أن حزب البعث السوري يعتبر نفسه الأب الورحي للقومية العربية، بعد تحقيق الوحدة ين مصر وسوريا تقلصت حرية التعبير وتعددية الرأى، كان لحزب البعث مآخذه على بعض القرارات

والتجاوزات. تصور الحزب أن من حقه التعبير عنا يراه متعارضا مع آرائه.. لم يشأ أن يتنازل عن دوره القومي الذي يراه رياديا، للقادم القومي الجديد من مصر، حدث التضييق، واتسعت مجالاته شعر الحزب أن النظام الوحدوي الجديد يتخذ طابعا شموليا متحكما، لايسمح بالمراجعة وتعددية الرأى، فبدأ يقوم علنيا، ويتحرك لتشكيل نواة لجبهة معارضة.

هكذا تقرر استبعاد الضباط البعثيين من الجيش السوري، وندبهم للخدمة بالجيش المصري.

صمت صلاح خدام قليلا ثم استغرق في ضحك هستيري حتى دمعت عيناه.

استغرق بعض الوقت حتى استعاد هدوءه، أخذ يقلب صفحات ديوان "نازك الملائكة"، وهو يقول بلهجة استرجاع، لم أكن بعثيا بالمعنى العقائدى، أعراني بعض الأصدقاء بالانضمام إلى حزب البعث والالتحاق بالجيش، بما لذلك من مزايا وعائد لا بأس به، كان أملى، ومازال أن أكون شاعرا كبيرا.. لم أتنازل عن حلمي ولن أفكر في التنازل.. الشعر عندي هو طريقة حياة، يخلق معنى لوجودي.. أحلم بالتحرر من قيودي التي لا ذنب لي فيها.. أحلم بالعودة إلى "اللاذقية".. إلى أحضان حبيبتي "لمياء".. لم يعد عندي كلام.. دعني الآن أكتب قصيدة من وحي حديثنا الذي أثار شجونى".

مرت السنة الثالثة على صحبتي لصلاح خدام، ونحن نقبع في خنادق موقع "أبو عجيلة" في سيناء، ترقى إلى رتبة النقيب فلم يشعر بأي

فـرح.. حـدث الانفصـال في عـام 1961 انكسـرت الوحـدة بـين مـص وسوريا، حزن صلاح حزنا حقيقيا، رغم كل المآخذ والتحفظات.

كـان حلـم الوحـدة العربيـة ثاويا في قلبـه رغـم أي تجـوازات، دفـني نفسـه في كتابة بعض القصائد الشعرية، لم يحرم نفسـه من حلـم العودة إلى "لميـاء" حـان وقـت الرحيـل. حمـل معه ذكـريات صـحاري سـيناء ووديانهـا، وفيافيها، وأمسيات واعدة على شواطئ الإسكندرية. عاد إلى "اللاذقية" لم ينقطـع عـن مراسلتي علمت من خطاباته أنه تزوج مـن لميـاء، واستقال مـن الجـيش، وتفـرغ لكتابـة الشـعر أرسـل لي ديـوانين يفيضـان بمشـاعر الحـب والهجران.

ودارت الأيام واسنون، وحدثت نكسة يونيو 1967، احتل العدوان الإسـرائيلي هضـبة الجـولان السـورية، ضـمن مـا احتلـه مـن أراضـي عربيـة. انقطعت رسائل صلاح لي وقتا طويلا.

كان قد مر عام على النكسة، عندما وصلني اليوان الأخير لصلاح خدام ومعه رسالة. لم يكـن الـديوان أشعارا في الغرام والهيام، ولوعة الفراق ومكابـدات الهجـران، وفـراق الأحبـة، وليـالي العشـق والسـفر في دمـاء الأحباب، تضـمن ديوانه الأخير أشعارا في المقاومة وحفز الهمم لإزالة آثار العدوان، وبأمجاد العرب، وإدانة لخزلان بعض العرب الخانعين.

فضـفت رسـالته، كانـت تحـوي أفكـارا كثـيرة، انشـغل صـلاح أخـيرا بالقضايا السياسية والتارخية قال لي في رسالته إن ديوانه الأخير قد نفد من السوق، وحقق له الشهرة المأمولة، وأنه راجع نفسه وأدان الذين تسببوا في

انفصام الوحدة بين مصر وسوريا، وهو يحلم الآن بوحدة عربية من المحيط إلى الخليج بعد أن ضاعت من أيديهم فرصة نادرة للنهضة والتقدم والوحدة.

وعندما مات "عبدالناصر" في سبتمبر 1970، أرسل "صلاح" لي رسالة تتكون من سطر واحد: العرب هم الذين قتلوا عبدالناصر، ولم تقتله إسرائيل".

إبراهيم قنوت

كـان ثاني ضـابط سـوري، عمـل تحـت قيـادتي، بعـد صـلاح خدام، في موقع "أبوعجيلة" في وسط سيناء، بدا مهتلفا تمام الاختلاف عن صلاح خدام، شخثية غامضة، صامت طوال الوقت يجيب على أي سؤال بجملة قصيرة مقتضبة، ضمنت أنـه يحمـل في داخلـه غضـبا مكتومـا، لم أره واحـدة يبتسـم أو يضحك، أو يعبر عن مكنون نفسه، أو يتخذ من أي ضابط مصري صديقا له.

كانـت لـه صـفات جسـمية خاصـة، ممتلـئ الجسـم، متوسـط الطـول، قليـل الحركة، له ملامح وجه سورية خالصة، بياض البشرة، خضرة العينين، أنف بارز، شـعر يجمـع بـين السـواد والصـفرة، فكـان عريضـا، وجـه ممتلـئ شـبه مستدير، نظرات باردة مفتقدة الحيوية.

أوحـت لي تعبيرات وجهـه وصـمته الكئيـب بأنـه غـير راض عـن نقلـه من الجيش السوري للخدمة بالجيش المصري، بعد شهور من تحقق الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، وجدت صعوبة كبيرة في التعامل معه وفضح صـمته، كـا مـا عرفتـه عنـه في البدايـة هـو أنـه مـن مدينـة "حمـص"، وهـو مـن أسـرة تعمـل بالتجـارة، ويفتخـر بأن جـذور أسـرته تمتـد إلى قـدامى الفينيقيـين الـذين حـدثني عـنهم طـويلا هـربا مـن الحـديث عمـا يجـري الآن في الواقـع المعـاش، حكـى لي كيـف تزواجـت أسـرته مـع نسـل قبيلـة عربيـة نزحـت إلى

الشام بعد الفتح العربي، حيث تغلب الدم العربي على الدم الفينقي، وأصبحت العروبة هي الدين والثقافة ونعقل القيادة في "دمشق" أيام "الأمويين".

حاولت مرارا أن أستدرجه في الحديث، حتى أتبين مكنون ما يعتمل داخل عقله، ولا يريد أن يفصح عنه، كان يمتنع تماما عن الحديث في السياسة، ومع ذلك كان يقرأ الصحف ويحتفظ ببعض القصاصات. يحتفظ براديو "ويلكو" يابانى، يتنقل بيني يده وجيب "الأوفرول"، ولا يتركه في يقظته ومنامه، ولايستمع إلا لنشرات الأخبار من معظم العواصم العربية وإذاعة لندن.. تعجبت كيف يتابع أمور السياسة ولايتحدث في السياسة.

لم يكن عندي راديو ترانزستور في هذا الوقت أبديت إعجالي بالراديو المستورد الذي يحمله، فأبدى استعداه لبيعه لى، سارعت بالقبول فباعني إياه مقابل ثلاثين جنيها، وعندما عاد من إجازته الدورية رأيته يحمل راديو "برانزيستور" جديد، كبير نسبيا وأكثر فخامه، سألته عن السبب في هذا التغيير، أخبرني بأنه كان يريد جهازا ينقل المحطات العربية والأجنبية بوضوح. انتهزتها فرصة لسؤاله عن سبب اهتمامه بالأخبار وما يجرة في العالم، لم أقتنع بقوله لى: "هواية.. مجرد هواية".. عندما كنت أقضي إجازتي بالإسكندرية، لاحظ صديق لي الراديو "ويلكو" الذي أحمله في يدي، سألني عن ثمنه، قلت له: "ثلاثون جنيها"، أخبرني أنه لا يساوي أكثر من عشرين جنيها، استغرقت في الضحك، وقلت في نفسى: "التاجر الفينيقي داخل إبراهيم قنوت تغلب علي الكرم العربي في نسبه".

مضت الأيام والشهور اتغرقنا النشاط التدريبي العسكري بعض الوقت. بدا "قنوت" حريصا على اكتساب الخبرة العسكرية المصرية، التي تفوق الخبرة السورية بدرجة ما.

لم ينجح في اكتساب صداقة زملائه، بسبب صرامته وجديته وانطوائيته وجمود قلبه، ولأنني كنت أحيد مشاعري باعتباري قائدا له، أصبحت قريبا من عقله، بعدما اكتشف نزعتي العروبية الواضحة ومن خلال حديثي عن أحوال العرب، حديث من طرف واحد باعتباره مستقبلا لا مرسلا.

تنامت ثقته في شخصي، ولم يشعر بأنني حريص على اسبجوابه والتحري عنه، كنت أحدثه دائما عن همومي الثقافية والوطنية والقومية، بعيدا عن ولاء أعمى، لا يرى السلبيات، ولا ينتقص من الولاء للمشروع الوطني المصري والعربي.

وانفتح إبراهيم قنوت أخيرا بعد صمت طويل، عندما سأله عن موقف حزب البعث السوري من الوحدة السورية المصرية، بعد أن ظهرت منه دلائل معارضة واحتجاج، انطلق في الحديث عن نشوء وارتقاؤ حزب البعث، بعد انهيار الدولة العثمانية، بدءا من "ساطع الحصري"، ووصولا إلى ميشيل عفلق، حتى الآن. ألمح إلى أن "دمشق" هي المعقل الشرعي للعروبة، قلت له بلهجة مقتحمة: أخمن أنك بعثي"، لم ينكر بل قلق بقوله: ولأنني بعثي، تم استبعادي من الجيش السوري لأخدم معك هنا في الجيش

المصـرى"، قلـت لـه: "لم لا تعتـبر ذلـك شـكلا مـن أشـكال التوحـد والاندماج؟"

صـمت قليلا ثم قـال: حـزب البعـث مسـتبعد الآن.. هـل تتصـور وحدة في غياب حزب البعث؟"

رجوته أن يخفف عن قلقه، وتجربة الوحدة مازالت في بداياتها، عاد يقـول بصـراحة مهمومـة: "أخشـى أن يتعامـل النظـام المصـري مـع سـوريا باعتبارها دولة تابعة، وهذا سيؤدي إلى كارثة، إذا غابت الشراكة" عدت أذكره بأن الشعب السوري وافق بإجماع نادر على الوحدة، والحكم على التجربـة يحتـاج بعـض الوقـت عـاد يقـول بحمـاس: لا بـد مـن فهـم طبيعـة الشعب السورى.. لن يتنازل عن حرية التعبير وتعددية الرأى.. لن يقبل بالتبعية حتى لوصحت الشعارات.. لن يقبل أن يحطك بنظام أمني صارم كما يحدث الآن".

عاد يقول لي خلال مناقشات عديدة متوالية، إنه يحمل بين ضلوعه ولاء لاشك فيه لمشروع نواة الوحدة القائم، ولكنه يأمل في تصحيح بعض المسارات الجارية، التي تشكل خطرا على الوحدة، وتهدد بانهيارها، وهو لا يشـك في نـوايا المشـروع الناصـري الوحـدوي، ولكنـه يخشـى مـن تجـاوزات، تتعارض مع طبيعة الشعب السورى، وتقلباته غير المحسوبة.

زالت القلق بيني وبين "قنوت" أصبح يأمني على أفكاره وأسراره، طلب مني أن أوفق إجازتي مع إجازته، لأصحبه إلى القاهرة، ليتعرف على

معالمها التاريخية، وفقنا الإجازة، زرنا سويا الجامع الأزهر ومسجد الأزهر ومسجد الحسين وخان الخليلى، ذهبنا إلى الهرم وقف مشدوها أمام تمثال "أبو الهول".

قال بمحبة: أحسدكم على هذا التراث التاريخي المذهل"، قلت له بظرف: مافيناش من الحسد"، زرنا القلعة توقف طويلا أمام صورة محمد علي، ثم قال: كانت سوريا جزءا من إمبراطورية هذا الرجل العبقرى" عاد يقول بلهجة متوازنة: هل ينجح عبدالناصر في تحقيق إمبراطورية عربية؟" طلب من أن نتوقف بقض الوقت أمام سور "صلاح الدين الأيوبى"، عاد يطلب مني أن نمشي بجواره، حتى يلمسه بكفيه، ويلتقط له بعض السور، جذبه الحنين إلى الماضي، فقال بشجن مؤثر: "نجح صلاح الدين في جمع شتات الأمة العربية تحت راية "دمشق". ربت على كتفي وهو يبتسم ويقول: "هل ينجح عبدالناصر في تحرير بيت المقدس، مثلما نجح صلاح الدين؟!" حل يوم الجمعة أثناء الإجازة طلب من أن نصلي الجمعة في جامع "الحسين" وصليناها في الحسين وما أن انتهينا من الصلاة، وخرجنا من الباب الرئيسي للجامع، حتى قال لي ونحن نرتدي أحذيتنا: "كان عبدالناصر أكثر وعيا وحكمة من الزعماء السوريين.. أجل مشروع الوحدة عامين.. من1956 إلى 1958.. كان يدرك أنه لم تنضج بعد الشروط الضرورية لتحقيق وحدة اندماجية.. وتحت ضغط الإلحاح اقترح وحدة فيدرالية، فلم يقبل طلبه.. استسلم في النهاية لحماس القادة وهدير الشارع السورى.. أخشى أن أثبت الأيام صواب رأي عبد الناصر، وبعد نظره".

طلب مني في إجازة أخرى تالية، أن أصحبه إلى الإسكندرية.. وذهبنا إلى العاصمة الثانية.. انبهر بشوارع المدينة ومبانيها وضواحيها القريبة من الساحل، قال لي إنها مدينة أوروبية، تفتقد الطابع العربى، ومع ذلك فهي تعجبه، زرنا المتحف اليوناني الروماني، توقف طويلا أمام قلعة "قايتباى". قضينا يوما كاملا في قصر "المنتزه" الذي أصبح حديقة شعبية بعد طرد الملك فاروق، عرضت عليه أن نقضي يوما على شاطئ البحر، نستحم ونعرض أبداننا للشمس، لم يتحمس للعرض، تعلل بأنه لا يجيد السباحة، وأن الشمس قد تحرق جلده الرقيق.

التقينا كثيرا في "تريانون"، و"أتينيوس" و"مونسنيور" وكافتيريا فندق "وندسور"، و"متروبول" و"سبسيل" أخيرا انفرجت أسارير وجهه. تخلى عن صرامته وكآبته. عزف تماما عن أحاديث السياسة وهمومها، لاحظت أنه بدأ يتابع، بنظرة فضولية نهمة، الفتيات الجالسات مع أحبابهن، والمارات في الشوارع، فرادي وجماعات، وعندما يشعر أنني ألاحظه، يعود إلى انضباطه، ويغطي مشاعره بتكشيرة كبيرة، كنت أعرف أنه غير متزوج، ولاينشغل كثيرا بالأمور العاطفية، فما الذي جرى له؟ أردت أن أشاغبه ذات مرة، ونحن جالسان في محل "كاليبيا"، وهو لا يغض الطرف عن حبيبين غارقين في لحظة عاطفية، ما أن استعاد انضباطه، حتى قلت له بظرف: "ألا تفكري في الزواج من مصرية؟" استغربت أنه استغرق في الضحك بطريقة لم أعهدها فيه، قال وكأنه يبادلني ظرف بظرق: هل تريد من أن أحقق الوحدة المصرية السورية عن طريق الزواج؟ دخلت السياسة في العواطف، لا بأس ولا مانع. وعدني بأن يتزوج مصرية إذا قبلت الذهاب معه إلى سوريا.

وحل ذلك اليوم الصعب الأليم نجح الانقلاب على الوحدة في سوريا في عام **1961** حدث الانفصال بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة، جرت الأيام بطيئة، حزينة، مشئومة.

أصيب الشارع العربي بالذهول والشعور بالصدمة، تكسرت نواة الحلم، وانتشر الخوف من مقبل الأيام، تقرر عودة الضباط السوريين الذين يخدمون بالجيس المصرى، وصدر القرار. كنت جالسا فملجأ قيادتى. مصدوما شارد الذهن، عندما دخل إبراهيم قنوت، حاملا حقيبته، ليؤدي طقس الوداع، تبادلنا حشنا باردا ثقيلا، تبادلنا سلام عزاء، كأننا في مأتم، قال لي وهو يزرف دمعة ساخنة: أنا حزين اليوم، كما لم أحزن في حياتى. تمنيت أن تستمر الوحدة، رغم كل المآخذ والتجاوزات.. كان عبدالناصر أكثر وعيا وحكمة من شكري القوتلي.. ليته استجاب لطلبه بأن تكون وحدة فيدرالية، عاد يقول وهو يتعيأ للانصراف: "لقد خسرنا معركة، ولم تحقق الهزيمة التامة.. دعني أراك في دمشق في ظروف أفضل، وعندما تشرق الشمس من جديد.

إلهام حسين

ما زالت عالقة في ذاكرتي، برغم بياض شعرى، وتغطية أسناني بالكباري والطرابيش، ظلت راقدة في وجداني أكثر من غيرها ممن عرفتهن، كانت زميلة وصديقة لأختي ضفاء، في مدرسة الأميرة "فايزة" بحي محرم بك بالإسكندرية.. تعرفت عليها عندما كانت تأتي إلى منزلنا، لتستذكر دروسها مع صفاء، قصيرة القامة وأنا طويل، أول ما لفت نظري إليها عيناها العسليتان، بشرتها بلون اللبن المصفى، ضفائرها طويلة، شعرها أسود فاحم، ناعم كالحرير ممتلئة قليلا، صوتها هادئ "خفيض"، تألفها من أول لقاء وكأنك تعرفها منزمن.

ملابس بسيطة أنيقة، زاهية ألوانها، انشغلت بها كثيرا، أكثر من انشغالي بدروسي في الثانوية العامة، تواصلت اللقاءات البريئة في منزلنا، استشعرت اهتمامي بها، فبادلتني اهتماما باهتمام، أنا بطبعي خجول، لم أجرؤ على اقتحامها. أقصى ما فعلته هو انتظارها على باب المدرسة حتى تحل ساعة الانصراف، فأمشي وراءها دون أن تلحظني، من حي محرم بك إلى منزلها في حي "منشا" أحس بالراحة، وأحرص على ألا تنتبه لمتابعتي لها.

يبدوا أنها كانت تلاحظني، أبطأت الخطي ذات مرة، توقفت فجأة والتفتت إليّ. دعتني لصحبتها، تبادلنا كلمات قليلة غرقت في خدلى.. احتوتني بنظرة حانية ودودة.

هكـذا سـرى الـدفء والطمأنينـة إلى قلـبي.. وتواصـلت لقـاءات الطريق، بجوار الترام، ووسط حشود الطلبة والطالبات فوجئت بأختي صفاء ذات يـوم، تقـدم لي زجاجـة "مولونيـا" صـغيرة، وتقـول لي: هـذه مـن إلهـام مفاجـأة لم تخطـر لي علـى بال، الطبيعـي أنـني أنا الـذي أقـدم لهـا هديـة، لم يسمح مصروفي الشخصي بأن أقدم لها هدية من مستحيل أن أطلب من أبي أو أمـي ثمـن هديـة، انفجـرت مشـاعري بحـب عـارم، قـدمت لهـا، ونحـن نتمشـى مـن مدرسـتها إلى منزلها،كيسـا مـن الحمـص وآخـر مـن الفـول السوداني، أبدت فرحتها وسعادتها وهي تتقبل هديتي بامتنان.

شمـت أمـي رائحـة الكولونيـا الـتي مسـحت بهـا وجهـي، سـألتني عـن مصـدرها، قلـت إنهـا هديـة مـن "إلهـام". لم أكـن أعـرف كيـف أكـذب، نصحتني بالانشغال بدروسي حتى أحصل على المجموع الذي يؤهلني كلية الطـب، كمـا أحـب وأتمـنى، بـدت النصيحة كإشـارة احتجـاج علـى اسـتمرار هـذه العلاقـة البريئـة، ومـع ذلـك لم أتوقـف عـن رؤيـة إلهـام، وتوصـيلها إلى منزلها، ثم تطور الأمر إلى ما هو أكثر، كنت أذهب إلي بيتها في المساء، وأقف طويلا تحت شباك حجرتها، انتظر حتى تطل من الشباك، فأحييها وتحييني، نتبادل همس كلمات، لا تصل معانها إلى الأذن، أحيانا ما كانت تشـير لي بالانتظـار، تنـزل مـن شـقتها بالـدور الرابـع، تـدعوني لصـحبتها إلى مكتبة قريبة، تشتري قلم رصاص، ثم تقول لي بعذوبة: تظاهرت بحاجة لهذا القلم حتى أراك"، قدمت لها كيس اللب الذي في يدى، اعتذرت عن قبوله حتى لا يفتضـح أمرهـا، أعـود إلى منـزلي لاسـتذكر دروسـي بهمـة ونشـاط،

تسألني أمي أين ذهبت، فأقول لها أي شيء إلا الحقيقة. تعلمت فن الكذب البريء، كتبت لها خطابا ساذجا، فبادلتني سذاجة بسذاجة.

هكذا كانت البداية، بداية القصة، قصة الحب الأول، كما يسميها البعض، ثم قامت ثورة يوليو 1952، ظهرت نتيجة الثانوية العامة، لم أحصل على مجموع كلية الطب، قررت التقدم للالتحاق بالكلية الحربية، فزت بالقبول. انحسرت علاقتي بالإسكندرية في إجازة قصيرة "خميس وجمعة"، مرة كل شهر، نتمشى قليلا في الشارع الهادئ الموازي لقضبان سكة القطارات، التي نسمع صفيرها كأنها صفارات إنذار، تذكرنا بموعد الفراق.

شغلتني في سنوات الكلية الثلاث أحداث ثورة يوليو المتسارعة دونما توقع أصبحت غريما لايقاوم لحبي لإلهام، أصبح عبدالناصر مثلا أعلى لأحلامي، أول رئيس مصري منذ ألفي وخمسمائة عام، منذ غزو الفرس لمصر، غوتني مراهقتي الفكرية أن أقوم بدور مثل دوره في مقبل الأيام، خطب فينا عبدالناصر احتفالا بتخرج دفعتي، حدثنا عن غارة إسرائيل علي قطاع غزة، وقتلت خمسين ضابطا وجنديا مصريا. حملت النجمة الأولى على كتفي انتظرت حتى استلم أول مرتب شهرى، حيث عملت بمعسكر مصطفى كامل بالإسكندرية، وقفت ببدلتي العسكرية تحت شباك إلهام، بدت فخورة بي وهي تسير بجانبي في شارع الذكريات، قدمت لها أول هدية وأنا غارق في خجلي المعهود، زجاجة عطر "أولدسبيسى" ألحت بأنها لن تتمكن من استعمالها إلا بعد إعلان الخطبة، وتواصلت اللقاءات البريئة.

تسارعت أحداث الثورة، أصبحت مهووسا بالتحولات الوطنية الكبرى الجارية، الإصلاح الزراعي، قانون العمل، صفقة الأسلحة التشيكية، تأميم قناة السويس، أخذت أحدث إلهام عما يجري في مصر، لم أجد أذنا صاغية، بل أبدت شعورا معلنا بالملل، كانت تفكر في شيء آخر، متى أتقدم لخطبتها؟ دعوتها لمشاهدة فيلم تاريخي في سينما مترو أبدت دهشتها من اختياري لنوع الفيلم، استجابت لعرضي على سبيل ترضيتي. حجزت في حفلة الثالثة ظهرا، وفي درجة "لوج"، حتى نكون وحدنا، ما أن انتصف الفيلم حتى احتويتها في صدري، وانهلت عليها بقبلات عنيفة لا تتوقف، لم أعبأ بمقاومتها، وتحول الموقف العاطفي إلى معركة، استأذنت في الذهاب إلي الحمام ولم تعد.. لم أجرؤ على معاودة الاتصال بها خجلت من نفسي شهورا.

عاودت الوقوف تحت شباكها وأنا يائس.. حدث مال م أتوقعه، استجابت لطلبي التقينا في كازينو "الشجرة" في حديقة "الشلالات" بالغت في أسفي واعتذاري. قالت بمودة ودلال "لم أعرف أنك مراهق كبير"، عدت أحدثها عن إنجازات الثورة، فعادت تقول لي وهي تتحكم في دهشتها: "ما هي أغنيتك المفضلة؟" طلبت منها أن أعرف أولا ماذا تفضل، قالت لي برومانسية عاتبة: "أغنية عبد الوهاب.. افتكرني ياللي قلبك مش فاكرني.. افتكر يوم.. يوم.. وافتكرني"، سعدت بهذا التفصيل، كانت من الأغاني المحببة لقلبي عادت تسألني عن أغنيتي المفضلة، فقلت لها بغباء لم أعرف كيف حل بى" أغنية عبدالوهاب.. مشغول بغيري

وحبيتـه. ويارتيـني مانـت هويتـه"، انتباهـا شـعور بالصـدمة، لم تسـتطع أن تـتحكم في قلقهـا وتوترهـا جـاء اختيـاري عفـي الخـاطر، ودون حسـاب للمناسبة، وفي غياب أي ذكاء عاطفى، مع أنـي لم أكـن سيئ النيـة، ولم أقصد أن ألمح لأي شيء. قال لي طبيب نفسي صديق، بعد ذلك بعشرين عاما، أنـي اخترت هـذه الأغنيـة، لأعاتـب أمي الـتي كانـت تفضـل أخـي الأكبر، الذي استحوذ علي حبها.

هكذا انقطعت صلتي بإلهام، بدا أنها قررت مقاطعتي إلى غير رجعة، ذهب كل منا في طريق غير طريق الآخر، تزوجت زواجا تقليديا، أنجبت ولدا وبنتين، أخذت أحلام الثورة تتراجع تحت مطارق الأعداء، انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، حرب الاستنزاف في اليمن، هزيمة يونيو 67، اهتزاز شرعية يوليو باحتلال سيناء، حدث عبور أكتوبر العظيم 1973، لم يتحقق الرخاء، ولم تنشأ دولة فلسطينية وجاء ذلك اليوم الذي لم يخطر على بال، جاء بعد خمسة وعشرين عاما، عندما ذهبت لزيارة أختي صفاء في منزلهـا، وجـدت في ضـيافتها سـيدة، تجلـس بـين صـبيين في حجـرة الصالون.. تأملتها بإمعان فاضح، ملامحها تذكرني بفتاة عرفتها منذ زمن، شحذت الذاكرة صرخت بلا وعي: "إلهام حسين" قالت بصوت واثق: ألا تذكرني يا طلعت؟ رأيت أمامي إلهام أخرى سيدة بدينة مترهلة، تتحدث عن مشاكل الأبناء وغلو الأسعار والدروس الخصوصية، وأزمة المواصلات وانشغال الزوج بهموم الحياة، ومع ذلك لم تفقد بعينيها العسلتين، تخفيان برق حلم مكسور، ساد صمت اللسان وسط هدير استرجاع باطني للحظات من زمن مضى وتولى.

انتهزت فرصة انصراف الصبية للعب، وانشغال صفاء بإعداد الغداء، قلت بحرارة:

– أعتذر عما حدث.. سامحيني.

– المحب لا يعتذر.

– لم أكن أفهم في أصول الحب.

– كنا أطفالا.. لا نعرف كيف نحول الحب إلى رباط.

– خسرنا اللعبة.

– ربما كنا وصلنا إلى نفس محطة الوصول.. زوج وزوجة وأطفال وحساب مصروف البيت.

استغرقت في ضحكة شبابية، دمعت لها عيناها، قالت في لحظة استعادة طافية فوق السطح:

– أستطيع أن أسمعك الآن.. حدثني عن أخبار ثورة يوليو.. هل مازالت بخير؟

تذكرت ما قلته لنفسي ذات يوم، وأنا قابع في خندقي، غربي السويس، اثناء حرب الاستنزاف، وأنا أعاني من مرض اكتئاب الخنادق، مثلما أعاني من الشعور بالغربة، وآلام حالة اللاسلم واللاحرب.

ما أعجب دنيانا.. ضاع الحب وضاعت أحلام الثورة.. ما معنى ذلك؟

هكـذا شـغلت نفسـي في كتابـة القصـص والـورايات والمسـرحييات، لأبحث عن معنى ضائع، أبحث عنه فوق صفحات ورق، بعد أن ضاع فوق ثنايا الأرض.

ذكرني اكتئابي بقولة "ألبيركامى" حياة بلامعنى.. يلزم أن تعاش.

عماد كامل

جمعتني بعماد كامل صداقة غير مألوفة صداقة تعدت حدود العلاقة الرسمية بين قائد ومن تحت قيادته، صداقة بين قائد السرية وقائد إحدى فصائلها الثلاث، لم تتأثر العلاة بفارق السن والرتبة، كان عماد يصغرني بعشر سنوات، وكنت أنا برتبة الرائد وهو برتبة الملازم، انضم إلى وحدتي بعد تخرجه، بعد تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام **1956**.

كنت بطبيعتي أراعي الجانب الإنساني في تعاملي مع المرؤوسين دون الإخلال بمستلزمات الانضباط العسكرى، الرحمة والمودة في أوقات الفراغ، والحزم والصرامة أثناء العمل، اقترب مني عماد بحميمية واضحة، شعرت أنه يتعاملي معي باعتباري أخاه الأكبر قبل أن أكون قائده، أخذ يحكي لي تفاصيل حياته الخاصة وحياته الأسرية، أصبحت أتعامل معه باعتباره أخي الأصغر، أحكي له بعض دخائلي الخاصة، بما لا يؤثر على روح الانضباظ، كانت له ملامح وصفا تقرب الآخرين منه، مهذب يعرف ما يقال ومالا يقال، بشوش، متفائل، يهتم بمشاكل جنوده ويحرص على حلها، له علاقات طيبة مع زملائه، ينمي خبراته العسكرية بهمة وحماس، طويل عريض الصدرن وجه أبيض مستدير، متناسق الملامح، بنية جسدية قوية، مشدود العضلات، يمارس الرياضة البدنية بانتظام.

انضم عماد إلى وحدتي في جبهة سيناء في موقع "أبوعجيلة" توطدت الزمالة والصداقة، أخذنا نقشي أوقات الفراغ في لعب الشطرنج ساعات طويلة، لا يكف عن إطلاق قفشاته الظريفة، وهو يستمتع بنقل القطع بمهارة وذكاء، كنت أشعر أحيانا أنه يتعمد الانهزام أمامي في بعض الأدوار، بحيث تكون نتيجة مجمل الأدوار لصالحى، هو يدرك أنني القائد، ولا يصح أن يهزمني، ولا يمنعه ذلك من كسب بعض الأدوار، حتى لاتغيب المتعة، ولا يتحول اللعب إلى نفاق مفضوح، كنت أحرص على المساواة في المودة بينه وبين باقي قادة الفصائل، وفقا لقواعد القيادة الرشيدة، وتجنبا لحدوث غضاضة، لم نكن نتحدث فيما يجرة في مصر من أحداث سياسية حاسمة، مثل صفقة الأسلحة التسيكية، وإعلان الدستور، وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي وغير ذلك، الحديث في هذه الأمور له حساسية خاصة بالنسبة للعسكريين، ثم إن عماد – بحكم سنه – لم يكن قد استوعب هذه الأحداث بوعي نافذ، إذا إنها كانت تمثل تحولات سياسية كبر لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر الحديث، كنت أشرح مغزى هذه الأحداث في دروس التوجيه المعنوي لقادة الفصائل مجتمعين، حتى ينقلوا هذا الوعي إلى الجنود أثناء دروس التوعية، طلب مني عماد أن يوافق موعد إجازته الشهرية مع إجازتي، حتى نقضي صحبة مدنية طيبة في القاهرة، وافقت على طلبه شريطة أن يصحبنا في الإجازة زميله ورفيق دفعته "بهاء علام"، حرصا على مبدأ المساواة في المعاملة، هكذا كنا نقضي ثلاثتنا الإجازة بالقاهرة، لم أكن قد تزوجت بعد، وكانت لي شقة صغيرة بحي الدقى، كانت أسرة عماد تقطن في حي العباسية، وتقيم أسرة "بهاء علام" في حي شبرا. كنا نقضي

وقتنا في أكثر من مكان، نجتمع في شقتي، نشاهد التليفزيون الذي دخل مصر منذ شهور نلعب الشطرنج، نختار أكعمتنا الشهية ونشرب الشاي والقهوة عدة مرات، أستمع إليهم وهم يحدثونني عن أحلام الصبا، كنا نلتقي عند ناصية شارع سليمان باشا أمام محل "الأمريكين"، أرقى محلات القاهرة آنذاك عماد وبهاء يتابعان الفتيات الآتية والرائحة بشبق المراهقة والصبا، يتبادلان تعليقات شبابية، تفرج عن انفعالاتهم، وأنا أشاركهم بابتسامة متحفظة منضبطة.. مازلت قائدهم حتى في أوقات التسلية والترفيه، لم يكن يفوتنا بالطبع ارتياد سينما "مترو" أو "قصر النيل" أو "رويال"، حسب نوع الفيلم، مرة يكون فيلما رومانسيا، وأخرى يكون فيلم مغامرات عنيفة.

كان قد مضى على الوحدة بين مصر وسوريا قرابة عام، انتظم تبادل الضباط بين الجيشين المصري والسوري، انضم إلى وحدتي ضابطين سوريين برتبة ملازم أول. أصبح عماد كامل أقرب ضباط السرية إلى قلبيهما، هو بطبع ودود وحسن العشرة، متفتح العقل والقلب، تحولت علاقته بهما إلى صداقة عميقة، قرف من خلالهما الكثير من عادات وتقاليد الشعب السوري، عن طبيعة مواصفات مدن وقرى سوريا هو يتعرف على سوريا شفاهيا، وهما يتجولان في أنحاء القاهرة سياحيا بصحبة عماد أثناء الإجازات، هكذا تحققت الوحدة بين الإقليمين على مستوى الأفراد، سمعت من عماد الكثير مما يدور بينهم من حوارات وأحاديث. فهمت منه أنهما من أعضاء حزب البعث السوري، وهما يتعصبان لبعثتيهم أكثر من أي شيء آخر، استمرت العلاقة عامين حتى حدث الانفصال عام

1961، كان الحادث صدمة مروعة للجميع. حان موعد توديع الضابطين السوريين ليعودا إلى الإقليم الشمالى، بدا الوداع أشبه بمأتم حزين، انهمرت خلاله الدموع مدرارا، تلقى عماد منهما وعدا صادقا بدعوته لزيارة سوريا.

مضت شهور قبل أن يدعوني عماد لحضور حفل تخرج أخته الكبرى من الكلية الأمريكية في حي العباسية قبلت الدعوى بارتياح، وفقنا الإجازة مع موعد حفل التخرج، أعترف أنني أعجبت بأخته، وهي تتسلم شهادة التخرج، فتاة رشيقة ممشوقة القوام، وجه ناصع البياض، ذات جاذبية خاصة ملفتة، وشعر أسود فاحم طويل، منسدل على كتفيها، ترتدي ملابس عصرية أنيقة منسجمة الألوان، لم تبارح صورتها خيالي وقتا طويلا، لم لا تكون شريكة حياتي، هكذا فكرت ثم قررت. عرضت الأمر على عماد، بدا فرحا بغير حدود، شعرت بأن الفكرة قد مرت بخياله، وتمنى أن تتحقق، لم يبق سوى تحديد موعد الزيارة، وطلب يد سهام كامل. اصطحبت معي أمي لزيارة الأسرة وتحديد موعد الخطوبة، ارتاحت أمي لمستوى الأسرة التتجمع بين التقاليد المحافظة والحياة العصرية الراقية، بدا واضحا أن هناك قبولا متبادلا بيني وبين سهام، أوقفتني ملاحظة. بدت سهام فتاة أرستقراطية متفتحة ومتحررة أكثر من اللازم وتعتز بنفسها، بما لا يتناسب مع طباعي الريفية الأصل، طلبت أن أتقيها بضع مرات لمزيد منالتعارف، تكررت اللقاءات المنفردة في منزلها، شعرت بأن طباعه المتحررة لن تتمشى مع طباعي التي تجمع بين المحافظة والتحرر تلمست محاذير كثيرة لعماد، للاعتذار عن إتمام الزيجة بدا له الاعتذار بمثابة صدمة، صدمة يمكن

أن تـؤثر علـى علاقـة الصـداقة بيننـا، وهـذا مـا حـدث بالفعـل تراجعـت الحميمية في معاملاتنا تولت الظروف حسم حالة الحرج هذه.

صـدر قـرار انتقـالي للخدمـة بالقـاهرة، هكـذا باعـدت الظـروف بيـني وبين عماد. حرص على زيارتي في القاهرة أثناء إجازاته على فترات متباعدة لكن العلاقة لم تستعد دفئها القديم.

قامت ثورة اليمن عام 1962، تأزمت الأوضاع القبلية في اليمن، لم يكن هناك مفر من انتقال وحدات عسكرية مصرية لتأمين الثورة في اليمن، انتقل عماد مع وحدته للخدمة فوق جبال "صعدة" الشديدة الوعورة والتي تقطنها قبائل مسلحة، انقطعت صلتي بعماد، تعذر علي استقصاء أخباره، مـر عـام علـى الأوضـاع المتأزمـة في الـيمن، فوجئـت بـزيارة صـديقة ورفيـق دفعتي "فؤاد مطاوع" في مقر عملي بالقاهرة قال لي بلا مقدمات: "البقية في حياتـك.. عمـاد كامـل استشـهد في كمـين يمـني مسـلح فـوق جبـال "صعدة".حزنت كما لم أحزن من قبل. شعرت أنني فقدت صديق عمري، جمعني به ذكريات صداقة ورفقة نضال، قلت في نفسي بدافع من الحزن والغـم والنكـد: ليتـني تـزودت أختـه سـهام، لنكـون حبـل وصـل بيـني وبـين ذكراه.

فوزي المنياوي

التقيت به لأول مرة في ندوة نجيب محفوظ الصيفية في كازينو "سان استيفانو" بالإسكندرية، كنت عضوا منتظما في الندوة، وكأنه ضيف طارئ غير متحمس للمشاركة المنتظمة.

أدركت أنه حضر لتهنئة نجيب محفوظ بفوزه بجائزة نوبل.أدهشتني هيئته، رجل في حوالي الستين من العمر، يرتدي نظارة سميكة فوق عينين جاحظتين منهكتين. شعر رأسه مشوش، لا يعرف المشط طرقه إليه، قميصه غير مكوي، بنطلون واسع متعدل، خال من الكسرة المعروفة، وجه رمادي لا يوحي بأي يقظة أو حيوية، منفصل عما حوله ومن حوله، لا توحي نظراته الجامدة بأنه يستوعب ما يقال، وإنه على استعداد للمشاركة بالرأي، استأذن في الانصراف قبل أن تنتهي الندوة، حرص على مصافحتي، وطلب من أن أقدم له أعمالي القصصية والروائية، ليكتب عنها دراسات نقدية، شعرت أنني أمام شخصية محيرة، لا أعرف عنها الكثير، ولا أعرف أنه ناقد معروف، وقد اجتاحني فضول جارف لأعرف عنه المزيد، فربما يكون نموذجا متفردا لعمل أدبي ملفت.

علمت أنه على صلة قوية بشاعرة سكندرية ناشئة هي "ليلي فتحى" انتزت فرصة مواتية لمقابلتها في أمسية شعرية بقصر الثقافة الحرية، كانت تشارك فيها بقصيدة، دعوتها إلى فنجان شاي في بوفيهه القصر بعد

انتهاء الأمسية، وسألتها عن فوزي المنياوي علمت منها أنه قاض غير مشهور بفرع مجلس الدولة بالإسكندرية، وأنه قد أحيل إلى المعاش، وهو ينشغل بنشاط أدبي واسع.

يكتب القصص والروايات والدراسات النقدية، والسيئ الذاتية لكبار الأدباء والمفكرين من أمثال طه حسين وعباس العقاد ويحيي حقي، علمت أيضا أنه يعتزل في بيته بالأنفوشي، ويعزف عن المشاركة في المناسبات الأدبية والفنية والاجتماعية، تعجبت أنني لم أسمع عنه ولم أسمع أحدا يتحدث عن أعماله الأدبية، علمت من "ليلى فتحي" أنه أعزب ويعيش مع أمه في بيت الأسرة، ولا صلة له بإخوته أو باقي أسرته، وهو شديد التدين، يتكلم كثيرا كأنما يستعرض معلوماته، ولا يحسن الاستماع لأحد، وقد نجح في الفوز بوظيفة رئيس هيئة الفنون والآداب بالإسكندرية، ولا أحد يعرف كيف وصل إلى هذه الوظيفة، رغم أن أحدا لم يسمع عن أعماله المنشورة، وكأنها منشورات سرية، وهو يدير نشاطه الأدبي عبر التليفون بمهارة منقطعة النظير.

دفعني ما سمعته عنه إلى فضول ملح لمقابلته والتعرف عليه وجها لوجه.

طلبت مقابلته، دعاني لزيارته بالمنزل.. ذهبت إليه ومعي بعض كتبي وعليها إهداء له.

أدهشني مظهر الشقة وما تحتويه، شقة مطلة على بحر النفوشن في عمارة كلاسيكية قديمة، باعها أحد اليهود المصريين، قبل رحيله بعد العدوان الثلاثي عام 1956، آثاث كلاسيكي قديم أيضا. السجاد

منحول الوبر، كسوة مقاعد الصالون ممزقة، بقايا ستائر فوق الشبابيك منضدة السفرة بلا مفرش ومتآكلة الدهان والكراسي متأرجحة الأرجل، وتفوح رائحة غريبة من المطبخ، والحمام غير صالح للاستعمال، فوجئت بأمه تخرج من حجرة نومها وتجلس معنا بطريقة توحي بأنها تجلس مع أصدقائه بدون تكليف، الكتب مبعثرة في كل مكان، في الصالون والسفرة، وحتى في المطبخ والحمام، وأكوام منها فوق مكتبه، وبلا مقدمات أخذت أمه تضج بالشكوى منه، لا يريد أن يجدد أثاث البيت، رغم ألوف ألوف الجنيهات التي يختزنها في حسابه بالبنك، يعيش على الكفاف ويبخل عليها بأكلة سمك أوطبق ملوخية بالفراخ، سألت نفسي من أي بئر خفي يتحصل على هذه الألوق التي تتحدث عنها أمه، ولم أجد إجابة. عادت الأم تقول إنه ورث طبع البخل عن أبيه، مثلما ورث عنه بضعة ألوف كان يخفيها في درج سري في دولاب ملابسه. هكذا عثرت عن نصف إجابة السؤال: أقسمت لي أنها تعيش بفستانين، ويرفض أن يشتري لها فستانا ثالثا، المدهش أنه لم يشعر بأي خجل أو حرج من شكاوى أمه، التي هي بمثابة فضائح معلنة، بل يشعر بالكثير من الزهو والاعتداد بالنفس، قامت أمه لتعد لي كوب شاى، فقال بعزة وكبرياء، إنه مشغول بإصلاح هذا العالم المعوج. ولا تشغلني السفاسف وعرض الدنيا سألته ما إذا كان يحب أن يعيش حياة الزاهد المتصوف، ردت أمه من المطبخ الذي تجرة فيه الصراصير: "الزاهد لا يختزن ألوف الجنيهات، ويتحصل منها علي فائدة قدرها 10 % .

دخلنا في الجد، أخذ يبصفح كتبي باهتمام زائد، أبلغني أنه سيكتب عنها دراسات نقدية مستفيضة، وسوف ينشرها في صحف ومجلات الدول الخليجية، سألته عن الحكمة في هذا الاختيار، فقال إنه لا توجد مجلات نقدية محترمة في مصر، مثلما لايوجد نقاد محترمون.. عاد يقول باعتزاز: رؤساء تحرير الدوريات الخليجية أصدقاء شخصيون ويدفعون بكرم.. بالدولار أو بالريال والدرهم والدينار، لم تمر شهور قليلة حتى أبلغني أنه نشر ثلاث مقالات عن مجموعة قصصية وروايتين لي في ثلاث مجلات خليجية، وطلب مني شراء هذه المجلات من السوق.

قرأت المقالات ولم أفهم منها الكثير، ملخصات للحواديب ولا حديث عن المغزى والمضمون.

أبلغني بأنه يعمل مراسلا للمجلات الخليجية الثلاث، وطلب مني أن أقدم له أفضل ما عندي من القصص والمقالات ليشرها في هذ المجلات، والحصول على مكافآت سوف يطير لها صوابي، لم ينس أن يذكرني بحقه في نسبة 25% من قيمة المكافآت، لم أصدق العرض، فقررت أن أجرب قدمت له بعض القصص، فحظيت بالنشر، ذهبت إليه لأستلم المكافآت سلمني إياها، وهو يشعر بأنه صاحب فضل، ولم ينس أن يخصم منها نسبته المئوية.

طلب مني أن أكتب دراسة نقدية عن آخر رواية صدرت له، صارحته بأنني لست متخصصا في الدراسات النقدية، ولا أكتب إلا ما أنا

مقتنع به، قال لي بجرأة مذهلة: سأكتب أنا دراسة عن روايتي وسأرسلها لجهة النشر باسمك"، قدم لي صورة من الدراسة وهو يقول: هذه هي الدراسة التي يفترض أنك كتبتها، ويجب أن تقرأها لتكون على علم بها.. تذكر أن المكافأة أكبر مما تتصور، ولن أحصل على حقي في النسبة المئوية، لم أفكر لحظة. رفضت العرض رفضا قاطعا لا يحتمل المراجع، واستأذنت في الانصراف، اتخذت قرارا لا رجعة فيه بقطع صلتي بـ"فوزي المنياوي". لم أعد أرد على مكالماته التليفونية المتكررة هكذا اختفى من حياتي، مثلما لم يكن له وجود حقيقي في الساحة الأدبية، لم أعد أعرف عنه شيئا سوى ما أقرأه في الصفحات الأدبية وفي الدوريات عن مشاركته في معارض الكتب والمناسبات الأدبية في بعض الدول الخليجية، من خلال دعوات استضافة منتظمة، تغطي تكاليف السفر والإقامة وماتيسر من مكافآت.

التقيت بـ"ليلى فتحي" في إحدي أمسياتها الشعرية بقصر ثقافة الأنفوشي. حرصت على أن أحصل منها علي إجابة لسؤال ملح، قلت لها وأنا أودعا على باب قصر الثقافة: "لا أعرف سر تمسكك بصداقة فوزي المنياوي".. أنت الصديقة الوحيدة له في الساحة.

استغرقت في الضحك وبدا أنها قررت مصارحتي عندما قالت:

أعرف أنك قد قطعت صلتك به. لو أخذت رأيي لما نصحتك بذلك.. فوزي المنياوي سمسار ذكي.. أقصد مدير أعمال.. لم لا تكن

عمليا وتستجيب للأمر الواقع؟.. لم أوافقها على هذا الرأى، لم أستطع أن أخفي غضبي وضيقي وأنا أنصرف بلا تعليق.

كان قد انقضى عامان عندما سمعت بوفاة فوزي المنياوى. ذهبت إلى سرادق العزاء، فوجدت أكثر من معز خليجى، يرتدون الجلاليب والعقالات، سلمت عليهم وعرفتهم بشخصي، حياني بحرارة رئيس تحرير لمجلة "خليجية معروفة". أشاد بأعمالي المنشورة في مجلته، لا سيما دراساتي النقدية عن روايات فوزي المنياوي لم أشأ أن أعلق.. دعوت للفقيد بالرحمة والغفران.. ذهبت إلى أمه لأعزيها طلبت مني بإلحاح أن أعاونها في طلاء البيت وتجديده وتغيير الأثاث.. أدركت أن ثروة فوزي المنياوي قد انتقلت إليها بعد أن تجاوزت الثمانين من العمر، لم يبق من فوزي المنياوي سوى أم وحيدة، تحاول استعادة حياة أنهكتها أمراض الشيخوخة، لم يبق منه سوى نوادر ذائعة الصيت.

الفهرس

بطاقة توثيق

- الكاتب محمد الجمل
- من مواليد الفيوم عام **1935** .. وتوفى عام **2013**.
- حاصل على ليسانس الآداب.. وبكالوريوس العلوم العسكرية
- عميد سابق بالقوات المسلحة
- عضـو اتحـاد الكتـاب وعضـو نادي القصـة.. إضـافة إلى العديـد مـن الجمعيات والهيئات الثقافية بالقاهرة والإسكندرية
- أبرز مجموعاته القصصية: قبل رحيل القطار – هناك خطب ما – داخل الكتيبة –كوكتيل –كعب الخير – جوع القلب.
- من أبرز رواياته: المسافة الصغيرة – من كفر الأكرام إلى بارليف
- القصور تتصدع فوق الرمال – جواز المرور – حدث ذات مساء
- آزيس – غيبون بدون جنون.